بوزيان بن عاشور

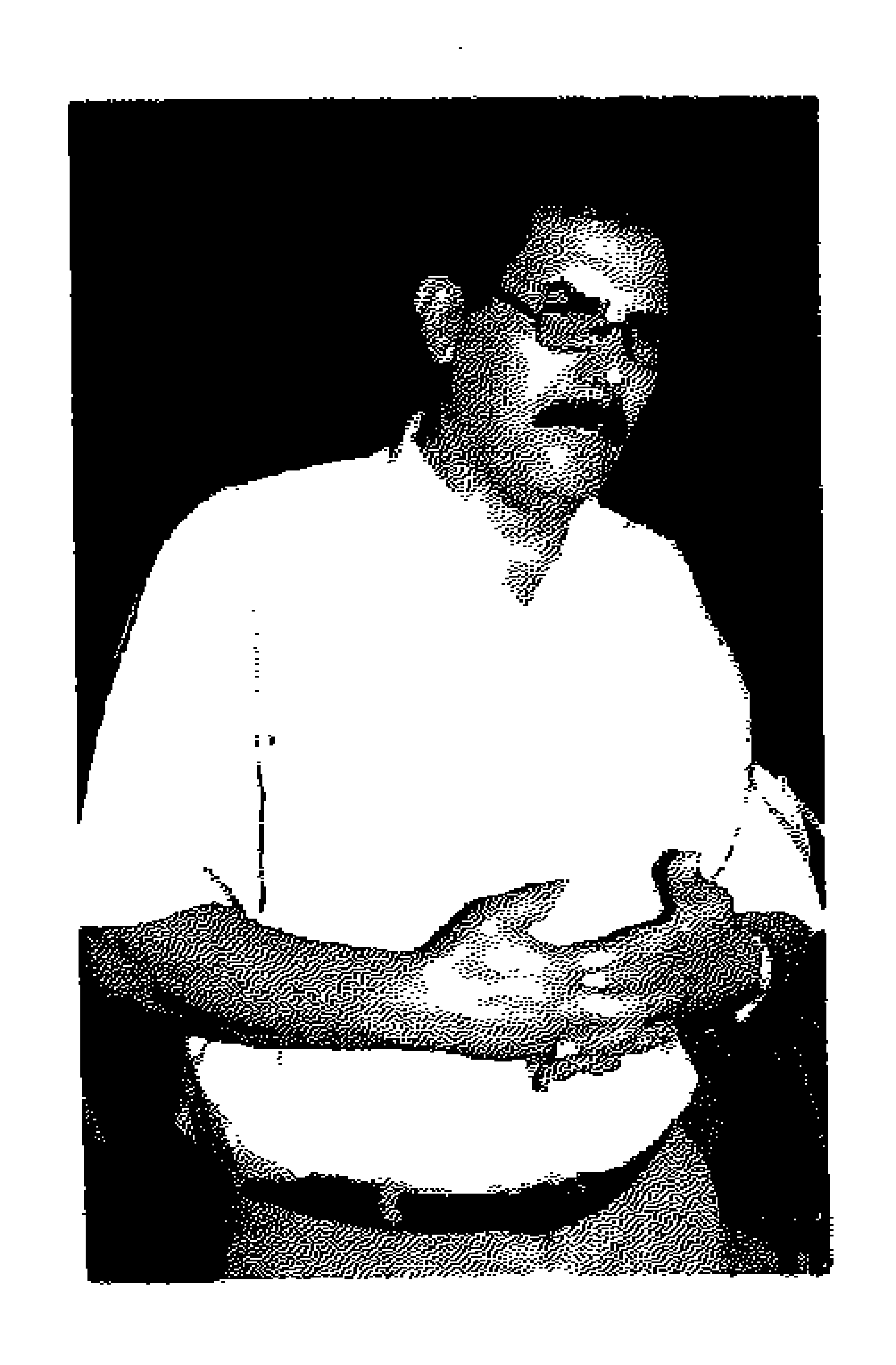
عش سنوات من الوحدة

ترجمة
الدكتور عبد الرزاق عبيد

رواية



دار الغرب
للنشر و التوزيع



Du même auteur

Parus aux éditions
DAR EL GHARB

ESSAIS :
- ***Le théâtre en mouvement Octobre 88 à ce jour*, 2002.**
- ***Figures du terroir*, 2003.**
- ***Le théâtre algérien, une histoire d'étapes*, 2005.**

ROMANS :
- ***Dix années de solitude*, 2003.**
- ***Sentinelle oubliée*, 2004.**
- ***Hogra 2006***
- ***Fusil d'octobre 2007***

PIÈCES DE THÉÂTRE

صياد الملح 1994
باب العسة 1995
الشكوى 1996
عبود الأول 2000
مرة مرة 2003
ولد البلاد 2004
شوف ياحمد 2004
الله لا يزيد أكثر
خروب ابلادي 2006


عاصمة الثقافة العربية

بوزيان بن عاشور

عشر سنوات من الوحدة

ترجمة

الدكتور عبد الرزاق عبيد

دار الغرب للنشر والتوزيع

إلى كل المجهولات المغتصبات في معاقل

العار ب. ب. ع

مقدمـــــة

أعترف بأنني أحسست بحرج كبير معتبر وأنا أقرأ رواية بوزيان بن عاشور. فهل ترانا نبتعد عن المأساة الفظيعة التي فتكت بآلاف الجزائريين الأبرياء لعجزنا المهول عن سرد مآسينا وهمومنا وتأوهاتنا وأفزاعنا ؟ أم ترانا نمجد بالكتابة مواقف بطولاتنا ومقاومتنا اللتين وسمتا مصيرنا ؟ هل هو فقدان للإحساس، أم إرادة غضّ الطرف ؟ لا يهم، لأن النتيجة واحدة.

طبعا إن هناك بعض الكتب التي نُشرت هنا وهناك عن مأساة وطننا، وسلطت الضوء قليلا على الكوابيس التي عشناها. غير أن فضل هذه الكتب يتمثل في كونها ظهرت إلى الوجود وكفى. لأن العالم أجمع قد بقي في بلبلة وتشويش وسوء فهم لما عايشناه وقاسيناه.

لا يجب الاعتقاد للحظة واحدة بأننا ندعو إلى النسيان، ودم الضحايا الأبرياء لم يجفّ بعد، ولم تلتئم جراح نفوسنا من وخزها. لأنه إذا كان من

البدهي أن يرغب الجزائريون في طيّ الصفحة، فإنه لا يمكنهم أن يقبلوا أبدا بتمزيقها. إنهم يطمحون إلى العيش الكريم، وعقد الأواصر مع الحياة الرغدة والتوازن والانسجام ولكنهم لن ينسوا بأي حال من الأحوال المأساة التي كابدوها في أجسادهم وقلوبهم، ولن يصفحوا بصفة أخصّ لأولئك الذين عبثوا بكرامتهم واغتصبوا بناتهم وذبّحوا فلذات أكبادهم.

يقصّ السياسيون علينا أيضا أساطير أخرى. ولشدّما يظهرون أمامنا سذّجا بدعاياتهم الماكرة التي تدعو إلى الضحك؛ بل وتدعو إلى الهمز واللمز أيضا ! ذلك أنه طال الزمن أو قصر فإن تاريخ هذا الشعب الذي تجذّرت روح المقاومة في وطنه منذ آلاف السنين سوف يكتب بصدق، وعناية فائقتين.

وسوف يشار للخائنين بالبنان. ولا بدّ حتما من أن ينكشف الستار عن الراكضين وراء السلطة والمؤامرات الخادعة.

إن جزائر اليوم كابوس مفزع وستبقى لمدة طويلة على هذا النحو. وواقعنا المتوحش بعيد عن مطابقة التطلعات التي ولدت يوم تحرير وطننا سنة

1962، وأبعد ما نكون عمّا تنتظره الأجيال المتتابعة.

إن رواية بوزيان بن عاشور تغوص بنا في عمق المأساة التي تثقل كواهلنا. وبأسلوبها اليقظ والمزخرف تسرد علينا كابوس أولئك النسوة اللواتي وقعن في أعاصير الهمجية الإسلاموية، وكنّ في لبّ المعارك، مثلهن مثل نساء حرب التحرير الوطنية اللواتي صودرت أدوارهن مباشرة بعد سنة 1962.

لحمة الرواية محكمة البناء، وتحلل لنا خاصة المأساة التي عشناها، والتي للأسف لا نزال نعيشها ! إن الحرب التي كابدناها قد بينت لنا أنه لا تزال في مجتمعنا قوات شعبية تقاوم الأصولية والإرهاب الأعمى بشراسة وتقاتل بشجاعة وإرادة وبأفكار شبيهة بما نلمسه في البلدان العربية الأخرى.

لقد لعبت المرأة دورا لا يستهان به في المقاومة الشعبية التي عرفتها بلادنا. ولم تقتصر على النخبة المثقفة والسياسية وحدها، ولا على

النساء سليلات العائلات البرجوازية المفكرة؛ بل شملت جميع الطبقات الشعبية.

وبوزيان بن عاشور في هذا العمل يروي لنا بأسلوبه الخاص المفعم بالوصف، اليوميات الحقيقية للمرأة المغمورة التي يعرفها تمام المعرفة، لكونه كان شاهد عيان مباشر وفاعل.

إن المقاومة النسوية قد شكلت مرحلة من أهم مراحل الحياة السياسية لوطننا، سواء في بلاد القبائل أو في وهران أو في جيجل أو في سيدي بلعباس أو في أي مدينة من المدن الشهيدة بالشرق الجزائري. في كل مكان تواجدت المرأة مع أخيها الرجل تكافح بضراوة وتبصر وتجازف في كل لحظة بحياتها وتدون الأحداث في الذاكرة الجماعية. ولم تطأطئ رأسها ولم تتنازل على الرغم من أنها كانت موضوعا لجميع الفتاوى وجميع المحرمات.

نعلم علم اليقين بأن المرأة في نظر الأصوليين هي سبب جميع الفتن. فهل ذلك لكونها رفضت أن يزجّ بها في العبودية ؟ أم لكونها صرخت بإصرار

وعناد وتقزز، ورغبت رغبة جامحة في أن تتمسك بالحياة ؟

إن رواية بوزيان بن عاشور - بكل بساطة - تخدم هذه القضية. فهو بوصفه فنانا يقوده في مسعاه لإجلاء هذه الحقيقة مساره المزدوج: باعتباره رجل صحافة، ومسرحيا.

مراسل صحفي محنك، ورجل ميدان منذ مدة طويلة. غادر المكاتب المريحة عن طواعية، وطاف بلا كلل أو ملل أبعد الأماكن في وطننا. فكان بذلك الملاحظ الدقيق لشظف الحياة التعيسة التي تعاني منها نساء بلادنا. ومكنته ملاحظته للواقع أيضا من معرفة أن النساء هن الأكثر عرضة للعيش الأعجف الذي صار بطول المدة لا يطاق بسبب انهيار الاقتصاد وتفكك العائلات وانهيار القيم وبروز الإرهاب الهمجي.

وصارت صفية البغي أو عائشة المدمنة تعمر اليوم "دواويرنا"، وتعيب أحياءنا وأنفسنا. وتسلطت النظرات الجارحة والقاسية على أولئك النسوة

المغتصبات قسرا ولم يتفهمهن أحد ولفظتهن الحياة لفظا.

إن مؤلف هذه الرواية بصفته رجل مسرح رهيف الإحساس، وبصفته معايشا للجزائر العميقة، يسلط الضوء على قصتين، بإنسانية وحرارة واقتناع، لامرأتين تقاطعت طريقاهما، وجمعهما قدراهما في تعاسة واحدة.

عمر بلهوشات

اليــوم الأول

إنهم لا يريدون أن يتفهّموا بأنني لا أرغب في أن أجيب عن أسئلتهم كما ينتظرونها هم. ولا أعرف إلى حد الآن لِمَ يصرون فقط على الاستماع للحدث الذي وقع؛ على الرغم من فظاعته المهولة. وكانوا يناهضون بقوة النهج الذي اقترحته عليهم: فأنا أصرخ منادية بشرح ملابسات الأحداث التي وقعت، بينما كانوا يجبرونني على الاكتفاء بوصف الجريمة وحدها. إن مُجْريات المأساة الداخلية التي تعذبني ليلا و نهارا لا تعنيهم في شيء. فهم لا يتقاضون رواتبهم من أجل البتّ في الأسباب والظروف التي جعلت مني امرأة قاتلة. إن مهمتهم تنتهي عند حدود الحدث. أما تلك الحياة التي أثخنتها الجراح، والتي هي مصدر قوتهم اليومي، فإنهم لا يعرفون عنها إلاّ المظاهر الخارجية. إنهم رجال مباحث. رجال أمن، وليسوا رسل سلام.

ولذلك فإن النهج الواضح الذي يذكي شعلتهم هو انتزاع الاعترافات بجميع الطرق التي يخولها لهم

القانون. ينتابني شعور بأنهم كانوا يريدون معرفة أسباب تصرفاتي الغريبة، أكثر مما كانوا يرغبون في انتزاع الدليل المادي للجريمة؛ وطالما كنت قد اعترفت لهم بمسؤوليتي التامة في الأحداث المنسوبة إلي منذ أن ألقي القبض علي في هذه القضية. ومهما يكن من أمر، فإنه لا مجال لأدنى شك في ضلوعي بها. أتحمل كلية مسؤوليتي المادية في جريمة القتل، وأستثني منها رغبتي التي لا تقاوم في البحث عن جوهر الأشياء، وذلك من أجل شرح الظروف التي أحاطت بفعلي الشنيع.

في كل مرة كان الرفض مهذبا، ولكنه جاف جفاف غصن زيتون في حالة تيبس. إنهم غير مبالين بسماع قصتي كاملة:

– اقتصري على الأحداث المنسوبة إليك، ثم نطوي الصفحة.

مافتئ ينصحني بهذه الجملة الرجلان البدينان، صاحبا الوجهين القاسيين، والأصوات المتقطعة، المتعالية، الباردة، المتعجرفة. و من المحتمل جدا أن يكون ذلك بسبب نصب مهنة أثرت فيها رتابة

الانهيارات الشخصية. كانت علامات الانزعاج تلوح عليهما لامتثالهما لقوانين عدالة بالية، والتزامهما بها. انتهيا بسوء النية، وسدّ آذانهما عن جميع أشكال العطف والحنان، والتقزز الواضح من كل التوسلات، والتظاهر بصدق الضمير. أجبت بإصرار:

– لكنني لا أرغب في قلب الصفحة ! لمَ تصرون على هذا ؟

لقد ذاعت قضيتي وانتشرت، بواسطة المقالات الصحفية بادئ الأمر، ثم بواسطة الطرق الشعبية بعد ذلك. يبدو أنني أصبحت مهمة لبعض الناس، ودارت قصتي بطريقة مشوهة سماعا على المدينة كلها حيث لا أزال أصدم الناس بهذه الرواية الناقصة المبتورة: "شوش عليّ ماضي القريب. فقتلت أعز صديقاتي في مكان عملها". كنت بكيفية ما على حدّ سيف. لا أريد بهذا العذر أن أهون من خطورة فعلي الإجرامي. ولكي أقص عليكم الحقيقة فإنني لست كائنا بشريا بإمكانه خلق الأحداث. إضافة إلى كوني امرأة، فأنا من الفئات الاجتماعية المهمشة. إن

الظروف المأساوية التي مررت بها هي التي قد تكون خلقت الحدث، حدث لا أثر له ولا بريق فيه دون أن تشرح لكم حقائقه التي تتجلى في نهاية المطاف. من بداية الأمر اعتبر ميلادي لدى العائلة المحيطة بي أول إعاقة يتحتم أن أتغلب عليها. وفي النهاية، فقد كانت عائلتي على صواب: أول عيب يكمن في جنسي. وكانت تلك الهبة الطبيعية هي التي وضعتني في الحالة التي أنا عليها اليوم. كيف يمكن صعود المرتفع عندما يهاجمك كل شيء، ويكون قدرك مسطرا عليك من البداية بواسطة جنسك ؟

* * *

إن الأشخاص ذوي البدلات الزرقاء الذين يستنطقونني لا يعرفون للابتسام طريقا عندما يدلفون إلى مكاتبهم. ذلك سلوك يمنعه القانون. إن أولئك القائمين على القانون لا يهمهم إلا الإمضاء الموجود في ذيل تقرير الاعترافات، ذلك هو الحل الوحيد الذي يوفر لهم النشاط، ويضمن لهم شبابا متجددا أقل

حركية في هذه الحياة - حياتهم - القائمة على نصبب الشراك والفوضى التي لم يعرفوا، أو لم يستطيعوا أن يتلذذوا بها. يحملون عتادهم الردعي كما نحمل تمايزنا، ودورهم يقتصر على إحالة فحوى تحرياتهم على القاضي المتخصص، بدون عواطف أو مشاعر في حدود ما تسمح به وظائفهم. وليس لهم رأي موافق أو مخالف يضعونه تجاه مآسي الأفراد.

إن "دعوتي لإعادة تشكيل" ظروف الاغتيال تجد في كل مرة رفضا قاطعا وصراخا. أقل ما يقال عن مقاومتي أنها مهينة. إنني أشهد انهيار آخر قلاعي بدون قوة: وهي أن أدافع عن حقيقتي. إن وضعي تحت طائلة الحبس الاحتياطي في انتظار الزمن الذي أعود فيه إلى رشدي كانت تخبخب في الأذهان المستغلقة للمسؤولين. ولم يفرج إطلاق سراحي المؤقت من الحبس عن وضعيتي النفسية. كنت أمر فوق حافة السكين، وكان رفضي "التعاون" يؤول بعدم شعوري بالمسؤولية الأخلاقية. للوهلة الأولى كنت أطرح معضلة لا حلّ لها في التقاليد الشرطية.

هؤلاء الموظفون ليس لديهم الوقت المادي للسماع باستمرار لروايتي للأحداث. إن المزية التي أولوني إياها بوضعي في مركز استقبال العجزة بدلا من السجن المكتظ تعد من الأفعال الاستثنائية.

قال لي الشرطي الذي كان يرافقني:

– لم يشاهد هذا قط في حوليات التاريخ.

إن حالتي يمكن أن تصبح سابقة. بينما تطرح حالات السوابق مشكلة لِسيوف القانون في هذه الأماكن المستعصية نهائيا عن كل انفتاح. ثم إنه لا يجب المزاح مع رموز السلطة. كنت بكيفية ما أتمتع بحرية مؤقتة الشيء الذي يعد أكثر من مرضٍ في حالتي قياسا بخطورة الحدث الذي قمت به. إن الحجز بسبب التحقيق المعمق كان رمزيا أكثر منه حرمانيا. وما من شك في أن هناك التباسا في النصوص القانونية. غير أنني كنت أشعر داخليا بإلحاح ورغبة في الذهاب إلى أبعد من الصيغ المجردة التي تحدد صلاحيات غرف الاتهام. ومع ذلك، لم أكن أخشى السجن، فقد عرفت الأسوأ في

تلك المعاقل السحيقة للهمجية. كنت أطمح في مقاضاة عادلة ليس أكثر.

إن مقاضاة غير منقوصة من الأسباب التي جعلت مني قاتلة. وبعبارة أخرى كنت أندد بضعف المؤسسات الاجتماعية.

كنت أحاول بعد كل سؤال يطرحونه علي أن أهيئ مستنطقيَّ وأوضح لهم جانبا واحدا قليلا من الأسباب العميقة للمأساة وأصولها. لكن ما من شيء قد أنجز، فلم يكونوا يتقاضون رواتبهم من أجل الاستمتاع للخطابات، بل كانوا يسعون للانتهاء بسرعة من إعداد تقرير عن التحقيق. لكل أهدافه. من الواضح أن أشغالا كثيرة تنتظرهم، وذلك بالنظر إلى الأعداد الكبيرة للملفات المؤجلة، والمكدسة في أعماق الرفوف. إنها أعداد لا تترك لهم هنيهة واحدة من التوقف للترويح والتخفيف من الجو العقيم للمؤسسة الأمنية، حيث صار الموظفون فاقدين لكل المشاعر التي تمزق مآسي البشر من فرط رؤيتها تطوف كل يوم في هذه الأماكن.

* * *

لقد جاءني الفرج في هذه الضائقة العميقة – بدون منازع – بسبب وجود هذه المرأة الشرطية في آخر لحظة من إستنطاق اليوم الأول. وبطلب منها مكنني زملاؤها الرجال من مباشرة القصة التي كنت متمسكة بها أشدّ التمسك. لا شك في أنها قد تصرفت بكثير من الحكمة لكي يُسمح لي أخيرا بالخروج عن الخطة الموضوعة مسبقا. يجب أن أخبركم بأن السيدة الشرطية قد تحصلت للتو على رتبة أعلى، وكان يتوجب عليها أن تمرّ على جميع المصالح لتثبت مرتبتها بوصفها رئيسة جديدة فيها. لقد كانت – حينئذ – صدفة سعيدة وضعها القدر بين يديّ. حظ فارقني سنوات عديدة من قبل ووجدته بجانبي الآن لأتمكن ثانية من معايشة مأساتي. أمرتني وهي تقطب الجبين قائلة:

– قصي علينا ! لكن لا تحاولي تمويهنا ! إننا نعلم أشياء كثيرة عنك وليس في نيتي أنا ولا زملائي أن نغفل طرفة عين واحدة أو نهون من دورك في قيامك بفعل القتل وبيع رضيعك.

استمرت توبخني، لكنني لم أكن استمع إليها، ولم أكن أرفع راسي نحوها كما لقنوني ذلك من قبل.

كنت أتنصل من الحاضر على الرغم من أنفي وأترك نفسي تسبح في الذكريات لأستعيد ماضي المؤلم، وأفتش بجنون في جميع مراحل حياتي وجميع مساوئي. كنت أبحث بحدّة عن جميع جراحي. دون فرز أو تمييز.

* * *

تقلصت طلقات الأسئلة الاتهامية تقلصا محسوسا. وكان السبب هو بصمات المرأة المسؤولة، على الأقل في هذه الفترة. وصار لي الحق في قول ما أراه في الجريمة ولو بكيفية ضمنية. وأخذ النقد العنيف الذي سلطه علي الشرطيان يتضاءل شيئا فشيئا. يبدو أن قضيتي قد نحت منحى جديدا.

- نعم يا سيدتي لن أقص إلاّ مأساتي. وليس مأساة الآخرين، أعدك بذلك. وسأذهب إلى جوهر المشكلة.

ذلك ما استطعت أن أقوله على عجل. وفجأة أدركت بأنني أمام باب مغلق لاسيما عندما اكتشفت بأنني لم أتسلح جيدا للجهر بحقيقة الأشياء. حقيقتي.

إن وقاحتي بدت مائعة في آخر المطاف. لم تستطع أن تخرج كلمة واحدة من فمي. كنت كمن شل لسانه، توقف مفاجئ يستعصى عن كل وصف.

إن قاعدة اللعبة الضمنية المعتمدة قيدتني بواجب مطلق، وهو أن استعيد بوفاء تام مجرى الأحداث التي مررت بها قبل الحدث الآثم. في حين اكتشفت مع الأسف بأنني غير قادرة على ذلك ! يبدو أن ركام كلمات الماضي يضغط علي مثلما يضغط مراقب فظيع. لا.

الدمّل ليس من السهل فقأه ! والسبب أن الحقيقة التي يجب علي كشف الغطاء عنها تخفي حقائق أخرى.

كنت أصارع نفسي صراعا عنيفا قبل أن أسلمها للآخرين. ما هو الشيء الذي كان محددا، وما هو الشيء الذي لم يكن محددا في هذه الأوديسة الجهنمية التي يُقترح علي كشفها إلى مساعدي العدالة مرحلة مرحلة، هؤلاء الذين كانوا على استعداد لكي يمنحوني سمعهم شريطة أن أبقى وفية لتعليمات البداية ؟ إن هذه السعة المسندة تناسبني من ناحية ما. لِمَ الكذب ؟ من أين تكون البداية عندما يحاصرك كل شيء ؟ إن الصعود ضد التيار ليس كما كنت أتصوره. وظيفة عاطلة.

فالتحذيرات التي تعرضت لها وكأنها مثل طلقات الرشاش كان لها بدون شك وقع جميل علي.. ومن شدة الضغط المجهد فإنها لا تترك لك الوقت للتفكير لا سيما وأن الدوامات الخادعة تظهر في نفس الوقت. إن دروب الانهيار يؤلم تسلقها. ويصعب فضح أوهامها خاصة.

جف حلقي. ووجدت نفسي على نار مضطرمة.

وقوة عجيبة من الجمود الذاتي تشل لساني.

هجرني المنطق فلم أستطع أن أتخلص من بلادتي. لقد إنطويت على نفسي بشكل لا يصدق .

ومرّ زمن طويل قبل أن أشرع في البكاء. بدأت المرأة التي تأمرني بالحديث تشك في مدى إخلاصي. إن العرض المحزن الذي أجريته لا يشجعها على الاستمرار.

والبكاء رفيق خائب في هذه الأماكن عندما تفضي اللعبة إلى كم يحتسب علي في الجلسة النهائية. وشهود العدالة الذين يستمعون إلي هم بحاجة إلى سماع مفردات وجمل منطقية و ليس إلى مبررات عاطفية لا تفيد في شيء. وبعبارة مهذبة فهم يفتشون عن اعترافات خالية من العواطف حول تورطي في اغتيال صفية. في حين أنه بهذه المحاولة لا منفذ لي إلى النجاة ! هذا ما تعلمته بسرعة مؤلمة منذ التمهيدات الأولى وكأنه حقنة كبيرة من يد ممرض مبتدئ. لقد تقرر مصيري بما يحصل وسط هذه المكاتب ذات النوافذ العالية والجدران التي تطفح بالندوب والاستسلام المهموس في الآذان.

نفد صبر المحررين لاعترافاتي. وبدأت فكرة مباشرة الاستجواب بكيفية أخرى تأخذ طريقها إليهم.

فشمروا عن سواعدهم رافعين أكمام قمصان "الديلافي" إلى الأعلى، وراهنوا صراحة على الطرق الأقوى للوصول بالتحقيق إلى نهايته، بل اقترحوه على مسؤولتهم بنظراتهم القاسية.

اختلست النظر إليهم فأحسست بغضبهم الصامت، إنهم يستشيطون غضبا. وصرت مرة أخرى في وضع صعب، ولم يعد الحظ يحالفني لأفلت من ورطتي. لقد صدق من قال: إن الحظ لا يحالف الموبوئين أمثالي إلاّ نادرا. وتملكني شعور بالفراغ واللاجدوى فتجمد عقلي وتصلبت روحي في الحال. حاولت أن أعطي عنوانا لمصيري وها هو يخونني هذه المرة. فلم أنجح في إشعال فتيل الإقلاع إلى الحرية. ولم يعد هناك مجال للانسحاب إلى الخلف في آخر دقيقة كما تمنيت سرا. بدت مقاومة القاتلة تافهة مثل نار قش لا جدوى منها.

* * *

أفزعني صرير كئيب لنافذة غير مشحمة فانتصبت مذعورة. وكانت مصالح المؤسسة قد بدأت تخلو الواحدة تلو الأخرى. تيقنت من ذلك من خلال الغلق الضوضائي للخزائن الحديدية التي تشكل أثاث العالم المهني لقناصي المتهمين المدرعين بشاراتهم وبمذكرات الحجز. لقد كان اليوم في آخره. هناك شيء غير محدد يضغط على صدري ويعيقني عن تكوين جملة واحدة منسجمة. وفتحت أمامي أسوأ الطرق على مصراعيها. كنت أشاهد كل ذلك وأنا فاقدة لكل قوة وأرى آخر أمالي تتهاوى أمامي. لم يكن تصلب رأيي سوى لعبة صبيانية مقارنة بالآلام التي ترزح بها الإنسانية. ولم يتحقق خطابي الوصفي. وتجلت إدانتي التامة والكاملة بكل وضوح. والواقع أنني لم أكن أقوى على رواية مجريات تلك العملية الفظيعة. فالتحقت بصف المهزومين. لقد كانت نهاية وهم.

وخلافا لما كان منتظرا، فقد قررت المرأة المسؤولة رفع الجلسة، وتحديد موعد ليوم الغد. ذهل زميلاها ربما ليأسهما من سلوكها المتخاذل فتخليا

عن الجولة دون أن يقولا لها العبارة التقليدية "إلى اللقاء". وهم في ذلك على صواب، فقد ثبطت عزائمهما. فسرتُ ذهابهما المفاجئ كحكم دون مراجعة بالنسبة للنهج الذي اختارته هذه المرأة الحديثة الترقية. فقد تذمرا منها لمعاينتهما أنها متسامحة إلى حد ما، وكانا دون شك متعجلين للمرور إلى أشياء أقل تقززا من سلوكي المذل. لقد كنت في نظرهما مدعية حقيرة متأكدة من نفسها. غادرا المكان وهما في حالة خذلان.

ومن جهتي، تلقيت مبادرة المرأة المسؤولة كمنفذ نهائي للنجدة. تأجيل أخير، منفذ نهائي.

* * *

عدت إلى مركز الاستقبال على متن سيارة الشرطة التي كانت تنتظرني أمام باب المحافظة. كان مرافقي الساهم وكأنه ناسك حليق الشعر بنظارات سوداء وخاتم كبير في أصبعه. جاء ليعرفني على العنوان ثم يعود من حيث أتى. وكانت

مسؤولة مؤسسة الملجأ التابعة إداريا للبلدية قد أشعرت مسبقا بقدومي. وكنت بالمناسبة شاهدة على تبادل الصلاحيات المتعلقة بإيداعي القضائي في هذا الملجأ. وتم ذلك على إثر مكالمة هاتفية قصيرة قصر مدة القبض عليّ. أخبرتني المديرة المتعودة على رؤية البؤس البشري بساعات تقديم الوجبات، وعينت لي السرير الذي سوف أنام عليه خلال إقامتي بهذا المكان. وتحت ظل نبتة لبلاب متعلقة بسقف قرميد فقد ألوانه الأولية اطلعت في أقل من عشر دقائق على القانون الداخلي للمؤسسة. هناك بعض القاطنات المتجعدات الوجوه اللواتي كنت أقابلهن في هذا العالم المتشنج كنّ يرشقنني بنظرات ملؤها الاحتقار. والبعض الآخر لا يرينني لاستغراقهن في عوالمهن الاحتضارية، ولالتصاقهن بحالاتهن الثانوية في الغالب. وأخريات كنّ يجهلن وجودي كلية في حظيرة القحط هذه التي تتقاسم الصمت كما تتقاسم الاضطهاد. الكل كان يعيش في قوقعة حقده. ويندمج فيها تمام الاندماج. أقبلن متشبثات بذكريات من ماضيهن إلى عالم مافتئ

يقضم ذيله. قلت في نفسي: المسألة بسيطة. لكل جيل نصيبه من الشقاء، ومن التعاسة التي تناسبه. أفهمتني مديرة المركز بإلحاح أنه لا يسمح لي بإزعاجها مهما كانت أهمية المسألة.

* * *

ذكرني المركز، للوهلة الأولى، بالثكنة العسكرية القديمة التي كانت قريبة من البيت الذي ولدت فيه، والتي كان والدي يزج فيها بالغنم التي نمتلكها من وقت لآخر. وكان يقول لنا بأنه يأخذ ثأره من التاريخ. إن الزريبة المرتجلة التي تضم الحيوانات التي اشترى نصفها أخوه المقيم في المدينة كانت تستعمل أيام الثورة مركزا يسجن فيه المجاهدون لتحرير وطننا.

ما تزال على والدي ندوب التعذيب التي كانت مطبقة على نطاق واسع في نفس هذا المكان قبل اليوم المشؤوم الذي انقلب فيه كل شيء جحيما على

أيدي هؤلاء الوحوش الذين لا يمكنهم أبدا أن يدعوا أنهم ينتمون إلى صنف البشر.

يجب أن أقول لكم إن مركز الاستقبال الذي وضعت فيه لا يزال محتفظا بتسميته القديمة "تكنة"، الذي عاش مآس جمة. هذه صدفة طريفة لم تؤثر في إقامتي كثيرا أنا المتشبثة بنقائضي؛ بل على العكس من ذلك فقد كنت مستريحة للنوم في مرقد يشدني على الأقل لشيء ما. مؤكد أنه مؤشر تعذيب، ولكنه يربطني بعالم الإرث الوحيد الذي لا أتقاسمه بالتساوي معهن.

ففي تقهقري الثابت صار كل شيء نسبيا إلى درجة توهمت فيها اكتشاف مظاهر إيجابية لتعاستي المستديمة. واستطعت أن أقنع نفسي أيضا بأن الحظ هذه المرة قد حالفني لمنحي فرصة أخرى في هذا الانفصام الغامض، المخدر، الراكد.

اليـــوم الثاني

حدثت حالة شاذة جدا في مساري الفوضوي إذ أن عقدة لساني قد فكت في محافظة الشرطة بكيفية تكاد تكون طبيعية في اليوم الموالي. فالكلمات تنساب بكل سرعة. وشرع سكوتي يتحرر، وجميع جزئيات مغامرتي التعيسة تعود إلي بجلاء جذاب وخارق للعادة. وتحول عدم انسجامي النفساني مع المدينة إلى قوة إقناع غير معهودة لدي توقظ النقاط القوية لقاعدة دفاعي. لن أخفي منها نقطة واحدة، وإن أدى ذلك إلى زعزعة احتشامي إن كنت لا أزال أتوفر على شيء منه. أحسست بأنني متحررة من كل الأثقال و الهموم.

تلك التي يرضعونك إياها بمجرد أن ترى النور. عند ميلادك.

تعهدت بأن أروي كل شيء. حول كل القيود وضدها. وذلك ما فعلته بعجلة أدهشت الجميع.

قبل أن أروي قصتي كنت قد رسمت إطارها دون مجاملة أو تنازل:

- إن فعلي يعد نتيجة منطقية لرسل الشر.

إنهم فرسان نهاية الكون. فقبل أن أكون مذنبة كنت ضحية لممتهني الموت، طائفة من المجرمين ذوي التقاليد المنحلة التي علمت أبناءنا حب الدماء. جماعة سادية حاقدة كفلت أجسادنا باسم قانون سكاكينهم.

كنت ممتلئة غيظا حتى وددت ألاّ أقاطع.

واستأنفت سرد مأساتي قائلة:

بدأت قصتي بالاختطاف، اختطاف في ليلة شتوية لن أنساها أبدا.

لم يتأثر الرجلان المكلفان باستجوابي بالكيفية التي كنت قد بدأت بها هذا الغوص في حياتي السابقة وأظهرا امتعاضهما الواضح من هذه البداية. لم يعد في وسعهما تحمل مرافعتي الغاضبة، بل اعتقدا للحظة بأنني أهذي.

وحذراني قائلين:

- لا تكرري ما قصصته علينا يوم أمس. أسرعي ! إن النقد اللاذع يعد أشد انتقاما من كل

شيء آخر. لذا نحن لا نستطيع المصادقة عل تصفية حساباتك المضخمة لحد القرف.

إنهم لا يتقاضون أجورهم من أجل أن يدونوا على الورق الهذيانات الوجودية. وظيفتهم إجلاء الحقائق، على الأقل تلك التي ترضي ضمائرهم وتضمن رواتبهم في آخر الشهر. لم ينتظروا رأي المرأة المسؤولة ليأمراني بالسكوت. كنت في مخيلتهم ماكرة من الدرجة الأولى، أما بهلوانياتي اللفظية فإنها لا تقنعهما بحال من الأحوال. وأكثر من هذا، هناك "زبائن" آخرون وجنح أخرى في انتظار الاستجوابات. فعلى الرغم من حداثة أعمارهما كانا يتمتعان بتجربة تطبيقية عالية في الاستجوابات الجاهزة، وحس مرتفع بمهامهما. ففي نظرهما إن زاوية هجومي قد تغيرت. ولهذا دفعاني صوب طريق آخر وصرخا في وجهي قائلين بقوة جبارة وألفاظ سامة:

- ابحثي عن شيء آخر للتغرير بنا ! لنجمل القول دون أن ننساق وراء العواطف الجياشة ! كانا يأمراني بذلك وعيونهما تقدح شررا.

مادام الأمر على هذا النحو فليقطعا لساني دون صراخ. بدأت أتلعثم وأضمر بسبب جو الحرارة السائد في المكان، أنا التي كنت أعتقد أنني راسخة القدم على المبادئ التي تعلمتها بالقرب من حماني "الأثرم". ساءت وضعيتي منذ تلك الساعة. وصار خط أفكاري ممزقا وتائها. كنت أعتقد بأنني تحررت نهائيا من التردد. ولم تستمر حيويتي المفرطة سوى هنيهة من الزمن. لقد جرداني من أسلحتي بشفافية ملاحظتهما وضبطها. فسقطت أرضا. على الرغم من التحدي الذي آليت على نفسي القيام به، صراحة، شعرت داخليا أنني في ضيق شديد. وابتذلت قضيتي إلى أقصى حد. وبدأت أزعج المحيطين بي، وأقضي على النزر اليسير من التعاطف الذي ظننت أنني أحرزته من المرأة المسؤولة، وتبخر كل شيء.

إن الجانب الدنيء من قصتي يمكن أن يزعزع الآراء ولكنه لن يمسخها. والمواقف المبدئية التي أظهرتها في بداية إلقاء القبض علي لم تعد تثير

الحماس في أي شخص. وتهوري صار بصراحة مشكوكا فيه. وكان قلبي يدق بسرعة.

* * *

تدخلت فجأة المرأة المسؤولة التي كانت إلى غاية الآن بخيلة في وضع نقاط التنظيم لتهدئة نفوس مساعديها، وقررت هذه المرة ألاّ "تستمع لمماطلاتي". بينت لهما بكيفية رقيقة وذكية رغبتها في التكفل شخصيا بملفي. واحتراما للسلم الإداري امتنعا عن أي شكل من أشكال الاحتجاج، ونفذا الأمر بالإيعاز العسكري.

شعرت على عكسها أن قواي خائرة، فأحضرت لي كوبا من الماء دون أن أطلب منها ذلك، وترجت الملاكين الحارسين أن يغادرا المكتب الذي تتقاسمه معهما. لم أعلم مغزى هذا الانسحاب الذي هو أقرب للإجبار منه إلى القبول. هل هو الصحو الذي يسبق العاصفة، أم هو عفو جاء متأخرا ؟

حاولت أن أجد جوابا مرضيا لكن دون جدوى.

وصرت مجددا طريدة لإحساس مسبق مزعج.

اكتشفت خلال هذا الفاصل القصير أن القاعة التي كنت فيها لم تعد نفسها بدون أولئك الرجلين.

فهما يعرفان كيف يملآنها بأسئلتهما الجافة، وكيف يستعملان نظراتهما الحيادية. إنهما يذكرانني خاصة برجال آخرين أكثر ضراوة. يجب الاعتراف بذلك، التقيت بهم على الرغم من إرادتي في مغارات تعيسة كانت تلجأ إليها الضباع للاختفاء، وتستعمل للمحاكمات المتسرعة وللاغتصاب المبني على الفتاوى.

أشارت إلي المرأة المسؤولة التي ظلت تتأملني لمدة طويلة أن أستأنف حديثي. وبعد ذلك أغلقت الباب بالقفل ثلاث مرات، وجلست قبالتي. تصورت آنذاك من خلال تصرفها المبهم أن الاستجواب سيستأنف لاستكمال التحقيق. وكانت قد علت جسدي قشعريرة وتصلبت مفاصلي تحت النظرات المهددة للشرطيين. وانتصبت أذناي ككلب ملسوع. رسالة أخرى منذرة لم أستطع بالطبع أن أفك رموزها.

– ابدئي من البداية واعملي على ألاّ تنسي شيئا فنحن هنا من أجل مساعدتك وليس للزج بك.

كنت أنتظر كل شيء ماعدا هذا الموقف.

تساءلت: وماذا لو أن وراء هذا الانطباع المتساوي الحدين الذي يشبه رأس ورقة استدعاء، ماذا لو أن وراءه فخ ممدود يحسن موظفو الأمن العمومي والاستقرار الاجتماعي كيف يشغلونه في الوقت المناسب بهدف انتزاع الاعترافات التي يريدونها ؟

أبدت المرأة المسؤولة الملاحظة التالية قائلة:

- في كل الحالات لم تبق لديك اختيارات كثيرة لكي تخرجي من الورطة التي وقعت فيها.

تلقيت هذا التحذير بالمعنى الحرفي ولكنني لم أشأ وأنا في ضياعي أن أعطي الانطباع بأنني استدر الشفقة والعطف. إن الاستجواب الذي كان يجري بفظاظة، ويختلط فيه الحابل بالنابل لنفس الهدف، كان يتوافق بشكل بارز مع أحاديث الأمس.

كنت في هزيمتي الحالية آمل أن أبقى واقفة وألاّ أنقاد خاصة للغلبة بسبب نداءات هذه المرأة الفاتنة، وتمهيداتها المطمئنة، وجميع وسطاء الساعة الأخيرة، رغم أنه ما من أحد أعارهم سمعه، اعتذار الضحية وعطف الجلاد. مؤكد أنني استجوب عن

مقتل صديقتي. لكنني لا استطيع أن أفصل هذا الفعل عن الجراح الجسدية والأخلاقية التي عانيت منها، وبالضبط مع هذه الصديقة المفقودة اليوم. ليس بسببي وحدي، كما يقولون ولكن بسبب المسؤولية الكاملة لكل الأخوة المزيفين الذين اكتشفوا في أنفسهم روح الإحسان على حساب مآسينا وجراحنا.

- سأبدأ يا سيدتي، ولكن أستعطفك أن تصغي إلي باهتمام.

رفعت حاجبيها متذمرة من هذا الطلب الجديد وأجبرتني هذه المرة "أن أدخل إلى صلب الموضوع دون مراوغة". وهو ما قمت به بلا تردد. أحسست تماما أن وراء هذه القبضة الحديدية مشاعر نبيلة جدا. هناك صوت داخلي يأمرني أن أكشف كل شيء لهذه المرأة المسؤولة التي أعطتني أخيرا فرصة لوصف سقوطي.

- أستمع إليك.

قالت ذلك محذرة لي وكأنها تذكرني بأنها هي التي تسير المحادثة.

وجدت الجواب دفعة واحدة والرد عليها قائلة:

لماذا تستجوبوني مع أنه كان من الأحرى أن تبدؤوا بهم ؟

* * *

أربكها سلوكي ففتحت المرأة المسؤولة أزرار قميصها العليا، وتأففت من أعماق قلبها. تذمرت ولم تفهم شيئا عن سبب اعتراضي. أعتقد بأنني أزعجتها عندما رددت عليها السؤال. لقد أصبح صلفي لا يطاق. هل أصبحت مستعدة لأن تترك اللعبة إلى زميليها الرجلين المدربين جيدا على هذا النوع من تمارين الاعترافات ؟ الظاهر أن الأمر سائر في هذا الاتجاه و لن تغير منه شيئا.

– سوف تسترجعين أفكارك أسرع بكثير مما تعتقدين.

قالت ذلك فأحسست أن المرأة التي تستجوبني قد اتخذت موقف ممثل العدالة، واللهجة الحادة وكل ما يلزم من القسوة والشدة لمواصلة التحقيق: إنه تسرف تعجلت أن تظهره لي دون مراوغة.

- سيعرف زميلاي كيف يتعاملان معك. سيأتيان لمساعدتي.

قالت ذلك بكيفية قاطعة لكي تزيد في الضغط علي.

كانت كلماتها سريعة. وفهمت بسرعة ما تحيل إليه. وتحول هدوؤها الأول شيئا فشيئا إلى غضب.

لقد استنتجت من أجوبتي الزائدة نوعا من التعالي تراه في غير محله، خيلاء مشوشة، سلوك للسعي إلى الهوجاء بغير سلاح. لم أعرف كيف أتصرف معها. خطوة في غير محلها يمكن أن تطيل التحقيق. لقد أسأت إلى المعايير المعتمدة. كنت أتبنى الجانب المائل من العدالة. أصبحت زائدة عن اللزوم، هذا كل ما في الأمر !

خيم على المكان جو خانق. وأخذت أفكاري في الغليان. إحساس لا يوصف، يدفعني شعور باطني إلى أقصى حدود التهور. ثم ماذا بعد كل ما حدث، إنني لست في أول فضيحة لي. فقد سددت ديني سابقا للعقاقير المهدئة. وأخذ سلطان "حبوب

(الدَّرَاجي)" يحوم مجددا فوق رأسي. التعود سم ليس له مثيل.

أمرتني قائلة:

- تابعي.

استغربت رواقيتها، وأجبت بصوت يكاد يكون حاسما وغير قابل لأي تنازل:

- لقد سرقوا منا بكارتنا واغتصبوا شرفنا يا سيدتي وسلبوا أجسادنا ومستقبلنا.

كنت قد تخلصت من الخوف الذي كان يخنقني، أو مما يشبهه. ولم أتزحزح قيد أنملة. بدا على المرأة المسؤولة هذه المرة شعور غامض. وكانت عيناها الثاقبتان كعيني مروض حيوانات وحشية بدون سوط تتفحصني بعناية مفرطة. وبهزة خفيفة من رأسها أشعرتني بأنها تنتظر البقية. فأعطى هذا الوضع للاستجواب مظهرا أشبه ما يكون بالسريالية. هل آن أوان رواية ما قد جرى بكل التفاصيل؟ أخذت أخمن تخمينات ملتوية وغريبة أولاها أغرب من أخراها.

غادرت محدثتي المكتب مقدار ما استرجعت الخيط الموصل"الذي يقودنا مباشرة للأسباب الحقيقية للجريمة". كما تطالب به هي نفسها. وخلال تلك الفترة الفاصلة تركت نفسي للأحلام، فذهبت لملاقاة عائلتي المستأصلة اليوم، وجمعتها في نقطة تمركز، وزودت ذاكرتي بالعلاقات الموصولة مع صفية وصفقاتها الشهوانية التي تتم في جنح الظلام مقابل مبالغ مالية أضلتها رغما عنها، واسترجعت أصولي وشجرة أجدادي التي تعود بحسب أبي إلى مزارعين سقوا بدمائهم وعرقهم الأراضي الواسعة التي استولى عليها الغزاة موجة بعد موجة واحتلوا الوطن قرونا وقرونا. وحاولت أيضا أن أجد تفسيرا للقاء غير المتوقع مع هذه المرأة المسؤولة ولا سيما أن أعرف سبب سلوكها المتغير والمضطرب تجاهي. وهكذا سمحت لنفسي بفترة استراحة، فانقطع حبل أفكاري فجأة بعبارة قوية "استقيمي في جلستك ! لسنا هنا في حمام"، عبارة أعادتني للحقيقة المرة. عدلت جذعي واعتذرت لها باقتضاب، اعتذرت بكلمات تكاد لا تسمع.

وبعد شيء من التردد لربط الحوار معي، وهو حوار أقرب للمناجاة الداخلية، غمزتني غمزة خفية.

غمزة من عين هذه المرأة الغامضة كانت كافية لكي أستأنف الحديث معها "وأن أفتح لها صدري، وأتقيد حرفيا بالتعليمات".

ففي هذا الوسط المثقل بالأفكار المعدة سلفا، والتي غالبا ما تكون منكسرة بالحوارات الهذيانية، استعدت جميع الذكريات المؤلمة التي جعلت مني مجرمة.

– إن المخدرات، يا سيدتي، هي التي دفعتني لاقتراف هذا الفعل الشنيع.

صحيح أن حجة مثل هذه لا أساس لها من الصدق ولا الإقناع. اعترافات خرقاء كهذه يمكن أن يُجمع منها ما لا يحصى من اعترافات الجانحين الصغار الذين يلوثون جدران الأحياء البائسة المحيطة بالمدينة على امتداد عشرات الكيلومترات. مدينة متورمة تماما بالأمراض الاجتماعية، غزو ضاعفته الهجرات الريفية القوية عشرات المرات. وفي جميع الأحوال فإن قضية المخدرات لا يظهر

أنها أثارت حماسة المرأة المسؤولة. تفرستني بكيفية مباشرة هذه المرة. وعندما أصلحت من شعرها بدت حركاتها أكثر عصبية. كانت أصبعها تنقر على الطاولة تعبيرا عن ضيقها. وكانت نظراتها شاردة. تعطي انطباعا بأنها ندمت على صرف مساعديها الذكرين.

ها أنا قد أهدرت ذلك التعاطف النسبي الذي نشأ بيننا كأنثيين. وعدت مجددا أسيرة عدم اكتفائي الذاتي.

اعترافاتي تدعو للرثاء بكل الوجوه. حاولت أن أتعقل في طلبي. مشوشة الذهن اقترحت عليها:

-اعتذر لك لتضييع وقتك يا سيدتي. نادي رجالك ليكملوا عملهم. ليأتوا ويقدموا لك يد المساعدة. فإن خدوشهم لن تكون مروعة أكثر من تلك التي تشق ثدييّ وأسفل بطني!

* * *

إن محاولتي لكتابة تاريخي قد أخفقت إخفاقا كاملا. وذريعتي المرتبطة بجنوحي النفساني لم يكن

لها أي أثر على سلوكها، ولم أستطع أن أحدث أي تأثير على اختصاصيي التخويف. وتحول سرابي إلى فلاة قاحلة. أخذت أنتحب وأنا أخفي وجهي بمقدمة ذراعي الأيمن. وخمدت ثورتي مثلما تفرغ كرة من الهواء. أدارت المرأة التي تستجوبني ظهرها إلى الخلف بضع دقائق وحددت لي موعدا في اليوم الموالي.

- سوف أتخذ ما يكفي من الوقت لكي استل منك جميع المعلومات التي لا تريدين التصريح بها.

كانت تلك هي الكلمات الأخيرة التي وجهتها إلي قبل أن تختفي كما يختفي البرق. فقد كان اليوم غير مثمر بالنسبة لنا. لم يكن التيار يجري بيننا.

وأثناء ابتعادها كان صوتها الأبحّ يتلاشى في الجلبة التي أحدثها شاب في حالة هذيان متخذا الشرطة هدفا له، يسبهم ويشتمهم بكلام جارح. لم يعره ممثلو الأمن أي أهمية وهم ينظرون إليه بعيون ساخرة. ما الفائدة من الصراخ مادام عندهم من الوقت ما يكفيهم للاعتناء به زمن خلال المداومة بعيدا عن الجمهور، حيث لن يكون هناك لا طعن

ولا نجدة ولا شهود عيان مزعجون. سوف يربتون على معصميه بحنان كبير ويسرعون في إمداده بنصيبيه من ضرب الهراوات التي لا تخطئ، ويسقونه من جرعات الإهانة الضرورية ليعود إلى رشده. سوف يهدئونه برقة وبأياد كريمة مفرطة، في زنزانة يعرفها جيدا لإقامته فيها من قبل، مربوط اليدين إلى الخلف وهو نائم على بطنه. سوف ينام على أرض العنبر المغطى بالبول والقيء. وسيجد نفسه مضطرا لحساب الزمن الفائت وأن يستمع إلى وقع الأقدام الخشنة التي ينبعث صداها من سلم العنبر وكأنها أبواق في قفص غوريلا هائج.

اليــوم الثالث

حضرت يوم الغد عند الساعة المحددة "لاستكمال الاستنطاق". الأثاث نفسه يزين القاعة، ماعدا صينيتي الرمل المستعملتين كمنفضين للسجائر قد حولتا من مكانيهما من قبل الخادمة ذات الفك البارز، الصامتة صمت أبي الهول. لقد حلت سيدة المكان هذه محل زوجها "الذي مات بأمر ... لقضية لها علاقة مسّ بحقوق الإنسان" كما يقال بلغة رجال العدالة.

كان يتحتم عليها أن تثبت وجودها وأن تعطي طابعا مقبولا لمحيط أولئك الذين يحملون البدلات الرسمية. صحيح أن المنحة التي ورثتها عن المرحوم زوجها ليست معتبرة، ولكن جدارتها تكمن خاصة في أن تظهر لزملاء زوجها القدامى مدى اهتمامها بما يجري داخل المجتمع الاحتكاك بالمجتمع بالنسبة إليها.

إنها تعمل بطريقتها الخاصة وبدون شعور منها على فرض النظام، وذلك بواسطة ممسحة ومكنسة

بعصا يسلمهما إليها الخازن مقابل وصل إستلام من إمضاء الطرفين في نهاية الصفحة. إنها قاعدة اللعبة المطبقة على جميع من هم في أسفل السلم الإداري لكي يتم توزيع الأدوات بشفافية كاملة. وهذا ما يزيل الشكوك ويعزز روح الجماعة التي يجب أن تنتشر بين من هم بدون حراسة من الشرطة. إنها هرم محكوم من القاعدة كما قال لي ذلك يوما حماني "الأثرم".

* * *

جاء دوري بعد أن جلست بضعة دقائق، ويداي تتأرجحان، كنت جالسة على مقعد من الخشب مدهون بطلاء رمادي سيئ. أشار إلي الحاجب وهو رجل قوي ملفوف مثل سيجار كبير، بأن أتوجه إلى المكتب الموجود في آخر الممر، أي المكتب نفسه الذي اجتمعنا فيه يوم أمس. ممنوع عليه منعا باتا أن يغادر مكان عمله، لأن المسؤولية تستاء من الهواة.

إن طبقات الرتب مراعاة تماما من العاملين المكلفين بأمننا.

استجبت له وذلك بالانحناء قليلا إلى الأمام. لم أشأ أن أنظر إلى الرجلين اللذين استجوباني يوم إلقاء القبض علي. هناك عقد شرف يتحتم علي احترامه تجاه تلك المرأة التي سمحت لي – وهي مزية كبيرة جدا لدى رجال القانون– بأن أقضي الليلة خارج السجن الذي شكل باستمرار النزل المفضل لهم.

اتبعت بدقة متناهية المسار الذي خصص لي. وكنت التصق بالحائط لتطبيق التعليمات. وكانت حركاتي وسكناتي مراقبة بعناية فائقة.

كانت المرأة المسؤولة مندسة في أريكتها، رافعة مسندها إلى الأعلى، فاتحة أزرار سترتها الواسعة قليلا عند الخصر. وبالطبع كانت قبعتها موضوعة على المكتب القديم الذي كانت قد استخدمته أجيال وأجيال من رجال الشرطة. إن هذه المخلوقة العجيبة تستطيع – دون شك – أن تتحول من حالة الشدة إلى الطيبة بسهولة لا مثيل لها. يبدو أنها استرجعت هدوءها السابق. يتنفس المكتب نقمة

صاخبة لعلها بسبب وجود هذه المرأة ذات العطر العابق والهيئة المتأنقة. الشبابيك المطلة على الطريق المقابلة لمستشفى الأمراض العقلية كانت نصف مفتوحة، وتحتاج إلى كشط كبير لكي تستعيد مظهر موادها الأصلية. وبفعل الرطوبة والعوامل الجوية ضيعت النجمية الملتصقة بوسط السقف نمنماتها وجميع نقوشها. وتشهد مزق الجصّ على الترميمات الرديئة التي تمت بسرعة، والتي لا تزال تتدلى كأنها مسبحة لا نهاية لها، تصل أسلاك من الحديد فيما بينها. الظاهر أن الميزانية المخصصة للمؤسسة الأمنية الجوارية أغلبها يوزع كرواتب على عمالها. أما إطار العمل فإنه آخر ما يهتم به، ولا يدخل في حساباتهم إلا بكيفية جزئية لا سيما إذا علمنا أنه معدّ "لنفاية" المجتمع أكثر منه إلى المواطنين الذين يتمتعون بكامل حقوقهم المدنية. ثم إن المصاريف الترفيهية لصِيانة الأماكن جماليا هي آخر ما يفكر المسيرون فيه.

وتعمل الخادمة غير المبالية شأنها شأن جميع من يشبهونها من ذوي الرواتب الثابتة ما أمكنها من أجل المحافظة على بقاء المكان نظيفا قدر الإمكان.

وليس من اللائق أن يطلب منها قنص خيوط العنكبوت عبر الصعود على شكل سلالم مترجرجة.

الواقع أنها لم تعد في سن تسمح لها بهذا التمرين العسير لا سيما أن مرض مفاصل العظام الذي تثبته أوراقها الطبية يعفيها من جميع الأشغال التي تشكل خطرا على الصحة الجسدية لموظفي الأمن.

* * *

بقيت برهة من الوقت واقفة داخل المكتب لكي أبين بأنه على الرغم من أنني متورطة في جريمة قتل فإنني حريصة على مكانتي باعتبار فتاة حسنة التربية، وسليلة عائلة كريمة. كما كنت حريصة أيضا على كسب ود المرأة المسؤولة ووقوفها إلى جانبي. سمحت لي هذه الأخيرة بمهارة فائقة في فن

المفاجآت، وبعينين شبه مغمضتين، أن أجلس على الكرسي الذي كنت قد جلست فيه يوم أمس. كانت تود بهذا التصرف أن أدرك الأهمية الرمزية لقطعتي القماش المثبتتين على كتفيها الدقيقين. فلم يكن من اللائق الإساءة إلى سمعة البذلة ولا الاستهانة بإمكانيات هذه المرأة التي هي في عذوبة الملائكة. فالوجهان يشكلان قطعة واحدة.

وبصفتها مرشحة حديثا للمسؤولية، كان يتحتم عليها أن تعرف جميع محطات مساري كمجرمة، كما كان يتحتم عليها أن تتبوأ مكانتها الجديدة كمسيّرة للرجال. وعليها أن توفق بين حياتها المهنية باعتبارها أنثى، ميزان حرارة دقيق لقياس كفاءتها كامرأة شرطية قادرة على أن تسم المكان بأسلوبها الخاص.

شعرت بخوف لا وصف له يتسرب إلى نفسي.

إن جانبي المتذبذب قد أدى إلى إغضابها.

استجوبتني بصوت جاف وآمر:

– ماذا ستكشفين لنا اليوم ؟

خلصني هذا السؤال بالرغم من كل شيء من ترددي الأولي. فأجبت بسرعة لكي لا أجد نفسي مستغلقة مثل يوم أمس. :

- قتلت صديقتي المنكودة الحظ لأن المخدرات كانت تنقصني. قتلتها لأنها كانت من ناحية معينة هي السبب في انفصالي عن ابني. وبقتلها خلصتها وعاقبت نفسي بنفسي في الآن ذاته.

قفزت من كرسيها عند سماعها لهذا الاعتراف. قبضت علي وأخذت تهزني بعنف قائلة:

- ما الذي جعلك تصرحين بهذا التصريح ؟

أجبت بكيفية شبه نبيلة:

- غريزتي النسوية التي تجعلني قادرة على الإنجاب حتى في أعسر الظروف.

إتكأت على ذراعها ثم قامت من كرسيها وفحصت الملف الضخم الذي أمامها ثم دارت حولي عدة دورات وخرجت من المكتب في حالة عصبية واضحة بعد أن صفقت الباب بقوة، وكان عليه معطف معلق قد فقد رونقه، فسقط محدثا صوتا نحيبيا.

هرعت لكي أحمله وأضعه على اللوحتين الخشبيتين المنتصبتين مثل لوحتي حاجز أمني مزيف.

لا أعلم ما الذي كانت تفكر فيه خلال رد فعلها غير المتوقع، ولا كيف أسترد هدوئي. فلم يبق لدي من الشجاعة ما يجعلني قادرة على مواجهتها، كما لم يكن في حوزتي ما يجعلني قادرة على تقدير معقول للوقت الذي منحته لي خلال هذا اللقاء. كنت أعيش وضعا صعبا.

* * *

ومثل الأيام الأخرى في مثل هذه الأوقات، فقد كنت أسبح في سنوات شقائي دون مجاديف. ليس من أجل أن أرى جمال صورها مثل أي شخص عاد، ولكن لأنقم عليها. صور حزينة تتعاقب في مخيلتي بدقة متناهية. كنت أستعرض الفترة الفظيعة حيث كان تلقيم الهوان بالحبوب يشكل تسليتي الوحيدة. في هذه العزلة التي هي بمثابة طعم مسبق

لما ينتظرني عندما ينتهي التحقيق، كنت أضبط عقارب الساعة لماضي الشقي. وأخذت أستذكر الاختطاف، والحجز، والاغتصاب الجماعي في تلك المغارات المفجعة التي تفوح منها رائحة المسك والمنشطات والمقويات الأخرى للجنس المختلسة من الصيدليات.

وكنت أجتر رعب زمن الفرز، وحصص التبادل الحر في الاتجاه الواحد الممارس على أجسادنا، والمشرّع من قبل جهلة أنذال يؤولون الإيمان كما يؤولون استهلاك اللحم "الحلال".

كنت أتخيل اللقطة الرهيبة للرجل الذي يشبه وجهه منقار أرنب عندما هجم علي مثل الخنزير. وسأعايش تلك الليلة المعجونة بكل المخاطر التي اغتنمت فيها غفلة حراسنا ونجحت أنا وصفية في الهرب من مملكة أسرار مخدع النوم الهمجية، والمنكرات المشرعة، والمحرمات القائمة على جداول الاستعمال، والوطء الجماعي المرفوع إلى صف العبادة باسم الإيمان. لقد كانت جميع اتجاهات الطوفان مرسومة في رأسي، ولم يكن واردا أن

أنسى واحدا منها. إنه سجل أحزاني. الفدية المدفوعة للعشيرة التي جعلت مني خارجة عن القانون.

انقضى وقت طويل قبل أن تظهر المرأة المسؤولة بابتسامتها المرسومة على ملتقى شفتيها.

وطلبت مني مجددا أن أقص حكايتي: هل فهمت بأنني كنت حقيقة مخلصة ؟ إن ذلك الموقف اللطيف لحد الغرابة نحوي قد أربكني صراحة. كنت أخشى تغيرها المفاجئ لدرجة لا يمكن شرحها. أحسست بدوار في رأسي ولكنني لم أرد أن أشعرها بأنني فقدت قواي.

سكتت برهة طويلة قبل أن تتوجه إلي بالكلام. وبانت ابتسامتها المصطنعة على وجهها الذي يكاد أن يكون مقفلا أمام كثرة التأويلات التي تزدحم في رأسي. بادرتني قائلة:

- أين وصلت مذ قلبك ؟ هل يمكنك أن تذكريني ؟

غير أن هذا السؤال قد صيغ على شكل أوامر.

فلم يكن مسموحا لي أن أنسى بأنني في محافظة للشرطة تحكمها صرامة النتائج. استعدت ما كنت قد

صرحت به من قبل مضيفة بأنني كنت الضحية أكثر مني المذنبة لأدل في كل مرة على حسن نيتي.

كان الاستجواب مهذبا، يمكن أن نقول عنه أنه كان ناعما مثل الأيدي السابحة والأقل حقدا من قطع الرقاب... غير المراقب، طلبت مني أن استعرض خطوة خطوة جميع المناطق المظلمة من ماضي، وأن أركز على أصغر رعشاتي، خاصة على الجوانب الممقوتة فيه.

* * *

كان يجب علي أن أتحلى بصراحة كاملة أمام هذه المرأة المسؤولة "التي تخلت عن كل شيء لكي تستمع إلى قصتي كاملة" كما أكدت لي. لقد التقطت الرسالة. وقد حثتني على ألاّ أهمل أي شيء. ولم تكن بمنأى عن أن تعيد بناء عناصر الفجيعة كلها.

تلك الفجيعة التي عشتها أثناء إقامتي الإجبارية لدى سيوف الجنس، والتي حولتها من خلال اغتيال صفية الضحية المزدوجة.

- لقد انتزعوني من عائلتي ولم أكن قد تجاوزت مرحلة المراهقة إلاّ قليلا. لا يمكنني أن أفصل هذا الزمن المؤلم، الكناشة المعصومة لأوقات تعاستي. يا سيدتي. هذا مستحيل !

- إمضي مباشرة إلى الهدف.

ردت علي شبه غاضبة.

كانت متيقنة بأنني راغبة مثلما تتمنى في أن أقص عليها كل شيء بالتفصيل، كما لم تكن تجهل أيضا الاتجاه الذي أرغب في توجيه المحاورة نحوه.

فقد أحسست للمرة الأولى بأنها كانت بالغة الاهتمام بالمأساة التي تعذبني.

ثمة نقمة عارمة كانت تقرأ في عينيها اللوزيتين اللتين تريدان أن تكونا مهددتين وراء ذلك الوجه الملائكي القادر على إغواء أشد الأئمة وقارا. وهذه بداية حميمية أخذت تسري بيننا. نوع من الاتفاق المسبق.

هل حانت ساعة التصريح برأيي في عدالتها، وفي الأشخاص الذين مورست عليهم ؟ لم يكن لدي

وقت أضيعه. كل ثانية محسوبة علي في هذا السباق الذي أعتبره يسير ضد حظ العاثر.

- إنها الجواهر التي كانت تحملها صفية على رقبتها ومعصميها هي التي دفعتني للقيام بالجرم الذي لا يصلّح يا سيدتي، كانت تنقصني المخدرات وهي لا تعرف بأنني كنت مدمنة تماما على الأقراص التي تعودت على استهلاكها بعد فراري من الجبل الذي غادرته حاملا.

لم تعد ممثلة العدالة تبتسم وهي شبه مخدرة على كرسيها المتحرك. قالت متنهدة:

- بالفعل، ذلك شيء مرعب.

تلقيت تلك الملاحظة المتسامحة وكأنها دعم لا مثيل له، وبدا لي أنها كانت منهارة بالاعتراف الذي كشفت عنه للتو. قامت بصعوبة من كرسيها، ونادت مساعديها. واضح أن هذا لا أهمية له في نظرهم.

زرع ذلك النداء العسكري الشك في رأسي، تساءلت: ماذا قلت أيضا حتى صارت مرة أخرى غير راضية؟ غير أنني هدأت عندما علمت أنها قالت لهم بصوت مرتفع تقريبا أنه من الآن فصاعدا

" ستكون غائبة عن الجميع، باستثناء قضيتي".

بالفعل إن كل شيء ممكن في هذه الأماكن من أجل "البحث عن الحقيقة"، وأنا أمثل بالدرجة الأولى "حالة" استثنائية قبل أن أكون شخصا ينتمي إلى الجنس البشري. ولكن ذلك الخيار قد أعطى فرصة مأمولة لمعركة "الساعة الأخيرة" التي أكابدها بضراوة.

منذ ذلك اليوم انقطع ذهاب شرطيي الاعترافات الجاهزة وإيابهم. وانقطع معهم العنف. أعطى أمرها الصارم نتائجه. وتخلى الشرطيان صاحبا النعلين العاليين عن ملفي لرئيستهما التي كانت في نفس قامتي. ومن هذه اللحظة أصبح لصراعي من أجل رد الاعتبار لحالتي أنا ضحية هذا القانون المعوج الذي لا يمكن تبرير متابعته. رياح مواتية يظهر أنها تهب في قلوع آمالي الخائبة. وانتابني إحساس بأن دما جديدا يسري في شراييني، ويشجعني على مواصلة المعركة.

طأطأت رأسي بتواضع لكي أشكر تلك التي دونت قضيتي ضمن أولوياتها. غير أنني في الآن

نفسه كنت أرتعش مما يمكن أن ينجر عنه بقية التحقيق. ولذلك كنت أعدل من تفاؤلي المتنامي خفية. فالنفوذ إلى قلوب رجال القانون ليس بالأمر السهل في بلد النكبات. الحكم عدو الهواية. فنحن لم نخترع شيئا.

* * *

لا أخفي عليكم شيئا، لقد أخذت المرأة المسؤولة تثير اهتمامي. فلم لا ننهي مرة واحدة قصة القتل هذه، وأن أذهب للقاء السجينات اللواتي أخفقن في الاندماج مع المجتمع ؟ إستأنفت العرض بشيء من الصراحة المباشرة لكي أتخلص من تراكم الأسئلة التي أخذت تزعجني بشكل جدي.

إن السكوت عن الابتزاز الذي عانينا منه يساوي الاستسلام تماما، ولست مهيأة أبدا لقبوله. لذا لا يجب التوقف عن الحديث عن معاناتي، فقد كانت قريحتي مواتية لوصف هذا الإخفاق.

- لم يكن في نيتي الأولية أن أقتلها. ولم تكن قد ظهرت منذ مدة. واختفى الوسيط الذي كان من المفترض أن يرشدني إلى ابنتي.

بدا بعض الفتور الواضح على المرأة المسؤولة بعدما كانت أول الأمر متيقظة لسماع قصتي. هل أن هذه الحياة المقطوعة بعلامات الاستفهام لا تروقها ؟ هل هي منزعجة على محتوى تصريحاتي الأخيرة ؟ هل بدا لها وصفي للأمور غير أخلاقي ؟ كنت أتصور بأنها غائبة. غائبة ! هل اهتمامها المفترض بالذهاب إلى ما هو أساسي" قد تبخر ؟

لم أعد أعتمد على أي أحد. لقد صارت حياتي سجلا مستمرا من الحوادث المأساوية. لم أكن قد خلقت لأنعم بالسعادة. لقد رسم أمامي طريق الضياع. فقد كنت مخلوقا كتب عليه الشقاء في ألواح الحكم مدى العمر، وبصفة نهائية. إن اليأس المحتوم قد جعلني أنزل مرة أخرى من عليائي. وصوت المرأة التي أعتقد بأنها أخذت كامل وقتها لتشريح ردود أفعالي جاء ليطلب مني خلافا لما كان منتظرا

"أن أتوسع خاصة" في الحديث عن شخصية المرحومة. غريب !

- لا تحاولي أن تخففي خاصة من علاقة الصداقة التي بينك وبين صفية ! حدثيني عنها.

كانت مصرة.

يجب أن أقول لكم بأنني تلقيت هذا التحذير وكأنه دعوة صريحة لأراجع بالتفصيل ما عشته من القريب إلى البعيد. فلم أكن حينئذ مقيدة "بالذهاب إلى ما هو أساسي". كنت أعلم أن الاعترافات المختصرة، والأحلام القصيرة لم تعد مستبعدة.

لكنني استسلمت للآمال. تساءلت: يمكن لمساعدي العدالة أن تكون لهم ردود أفعال إيجابية، ولم لا ؟ غير أن هذا لا يعني بالمقابل أنني تخلصت من تخوفاتي المتراكمة. إن الإخفاق قد سلمني إلى امتحانات عسيرة، ولا يمكنني أن أصدق كلام الأفراد بسذاجة، وبصفة أخص لا أصدق امرأة تنتمي إلى قوات الأمن، حيث تعد "معالم" الجريمة كوطن والعنف على الأفراد كعربون للشك. فقد كنت أحمل علامات الزمن وكأنه حمل ثقيل لا يطاق.

ولكن التردد الذهني الذي كان يقرأ في تشنجات وجهي المتشابكة قطعته فجأة صيحة حادة لامرأة مهتاجة وضعوا القيود في معصميها لتهدئتها. كان يجب شل حركتها لكي لا تعمق الهوة التي تفصلها عن العالم الذي نتخذه مرجعا لنا. كان وجهي ملتهبا مثل بيضة مسلوقة. فلقد اكتشفت حقيقتي التعيسة بين هذه الجدران المكللة بالمدافئ المعطلة التي تحتاج إلى طلاء جديد. ولم تكن المرأة المسؤولة موجودة. من المحتمل أن تكون قد ذهبت لتقدم يد المساعدة لزملائها، ومتذمرة من "السلوك اللامسؤول" لهستيرية الزائرة التي كشفت عن صدرها العاري.

ومن جهتي، قمت من مقعدي اللعين لكي أتأمل المحيط الذي سوف يرافقني خلال استجوابي.

واستعرضت جميع ذكرياتي خلال هذه الفترة القصيرة الهادئة.

إن الأحداث المنسوبة إلي، والتي أعترف بها دون مواربة أو شك تشكل من الآن فصاعدا أحسن حججي في الدفاع عن حقوقي للتعبير كما أريد. لقد كنت مهيأة لتسديد الحركات الرعناء المقيدة في

الكراسة الثقيلة التي منحها لي كرم إدارة الشرطة، باستثناء أنني قررت أيضا أن أبرز الضربة القاضية التي قادتني للتصرف على هذا النحو. إن العمل الإرهابي لا ينفصل عن فعلي، ولن أقبل بأي حال – وإن تحتم الأمر أن أدفع مرتين الثمن – حكما يكتفي بتوريطي في قتل أعز صديقاتي، دون مراعاة للسياق السابق، ولظروف معيشتي التي لا تطاق، والتي قادتني على الرغم من أنفي إلى القيام بما لا تحمد عقباه.

إن العقوبة لن تفزعني مهما كانت درجتها.

ليكن هذا واضحا. لقد قررت ألاّ أتحمل مصيري بكل بساطة. لقد كنت مذنبة مضطهدة.

وسيكون الاستسلام ممحوا من مفرداتي، وممسوحا من نبراتي. ولن أحس بإخفاقي كهنة يجب إخفاؤها، ولا اعترافاتي كمحرم يصدم الأخلاق الحميدة، وإنما كمنصة حقيقية للاعتراض، ومن فوقها سوف أصرخ عاليا بثورتي، وأذكّر بعذريتي الضائعة، وعذرية مثيلاتي المحرومات من السعادة طيلة حياتهن، ولنّ أقبل أن يمد البساط الأحمر تحت

أرجل مهندسي جراحنا. وأرفض أن أواجه ككبش فداء صفوف الصافحين على ما سلف.

إن هذه الآراء المضطرمة بداخلي قد رجحت كفة المرافعة عن قضية آلاف النساء اللواتي التحقن بالجحيم بسبب أخطاء رسل التعاسة الذين قيدونا في الجحيم، في حين أنهم لا يزالون يتبخترون في جنتهم الممقوتة. وصفية هي النتيجة والمثال الصارخ على ما قررت أن أشجبه مهما كلفني الأمر. إن الشك الذي غشي نظري لبعض الوقت قد انقشع. وفقدان المؤشرات التي أتغذى منها من موقعي كامرأة مهمشة نهائيا، وككائن ضال بالنسبة للمجتمع قد توقف. لقد عدت امرأة مرة أخرى. أو شيئا من هذا، لأكون امرأة شريفة.

عادت المرأة المسؤولة التي كنت قد نسيتها في جولاتي الذهنية ولم أكن انتبهت لعودتها. كانت تدير لي ظهرها، وعيناها تنظران إلى الجدران الفاقدة لرونقها، بينما كانت تهب على المكان ريح ساخنة.

كانت ترطن بكلمات لم أفقه معناها. كنت أتمنى خلال هذه الفترة المحددة أن توجه لي صيغة عامة،

أو عبارة مقولبة لكي تنقذني أخيرا من المأزق الذي أنا فيه. في النهاية، إن المجهولين الذين على شاكلتي لن يكونوا في راحة فعلية إلا إذا كانوا منفردين.

وثقتي النسبية بالنفس - التي أحدثها الفراغ المحيط بي - قد ذابت كما تذوب زبدة الجنوب تحت أشعة الشمس المحرقة. هل أن الرغبة التي اعتقدت أنني سوف أكشفها بمجرد أن أتخطى عتبة هذا الباب في اليوم الثاني من التحقيق معي قد تفتتت ؟

دخل أحد الشرطيين اللذين استجوباني في اليوم الأول على عجل وهو يحمل مسدسه في يده كي يطلب رخصة للخروج قبل موعد الخروج. شرح للمرأة المسؤولة وهو يتردد أن وراءه التزامات عائلية عليه أن ينجزها بسرعة. فقد طرد ابنه من المدرسة بسبب التخلف في دفع تكاليف الدراسة.

وافقت مسؤولته المباشرة على الرخصة قبل أن يتم رب العائلة المتهاون مرافعته.

كان يلوح منها شعور بأنها متنصلة تماما من قضيتي. صمتها أدخل الفزع في نفسي. أتكون قد استأثرت بها تعاسة تلك المقيمة المقيدة التي غادرت

الممر، وذهبت إلى حصة الأسئلة والأجوبة في واحدة من الغرف الكئيبة التي تملأ هذا الممر الطويل المكتظ بالصور ذات اللون الأبيض والأسود للمطلوبين من قبل العدالة؟ وما هو غريب ومثير في الآن نفسه، هو أنه ما من واحدة من هذه الصور الملتصقة بالجدران لمن يفترض أنهم جانحون لواحد من أولئك الأفراد الحقيرين الذين اغتصبونا في تلك الليلة المفزعة المرعبة. هل يكون قد نسيها من كان يعلق الصور؟ تساءلت عن ذلك بيني وبين نفسي يوم دخولي إلى نادي هؤلاء المحلفين، الذين يتقاضون رواتبهم من أجل التدخل في حياة الآخرين. كنت أفكر في كل هذا عندما طلبت مني المرأة المسؤولة أن أعود يوم الغد في نفس الساعة ونفس المكان. لا أعرف بالضبط إن كنت سأسعد بهذا التأجيل المتناوب أم سأخسط. أنا التي كنت أصر إصرارا كبيرا على تضخيم مأساتي. ها هم الآن يطلبون مني التأني. كان هناك شيء مبهم في هذه العلاقة الناشئة.

لقد بقيت تحت وقع ضيق عارم.

* * *

وأنا أغادر المكان ، تملكتني رغبة جارفة بمشاهدة صور أولئك الجانحين لعلي اكتشف واحدا ممن اغتصبوني. دون جدوى. كان أحدهم قد همس في أذني أن هؤلاء المنقلبين الجدد إلى السلام، ذوي الماركة المعروفة، لم يتعرضوا لأية مساءلة. ثرت على هذا ثورة كبيرة. لا يمكنني أن أقبل بأن أحاكم وحيدة "للعبرة" في حين أن عشرات المغتصبين المجرمين غير كلاحقين على أفعالهم الدنيئة الإجرامية. وأسوأ من كل هذا فقد أعيد اعتبارهم، الويل لكل شخص يمكن أن يضايقهم ! لقد فصلت السياسة باسم شعب لم يستشر يوما في هذا الموضوع. مؤكدة لنا أن انحرافهم مرتبط باعتبارات اجتماعية ظرفية كما أضاف الناطقون الرسميون لتبييض اللاشرعية ولتبرئتهم من جرائمهم. وأكثر من هذا أنه خلال محادثة عابرة تمت في خلوة نسوية علمت أن أي شخص يكذبهم سوف يكون عرضة لغرامات كبيرة.

استبد بي غضب فظيع عند خروجي من المحافظة، وودت أن أصرخ هواني وغضبي بكل ما

أوتيت من قوة. إن مواجهتي المؤلمة بماضـي الملطخ تدفعني بعنف نحو وحدتي المؤلمة عند خروجي من مقر منسقي الاستجوابات.

* * *

ولكي أخفف من قلقي، شرعت في سماع ضوضاء وجنون هذه المدينة ذات الخطر الداهم التي طردت عنها كل مفهوم للتعايش والتحضر. ويقترن العنف بالحياة اليومية حول أولئك الموسميين الدائمين من الإقطاعيين المخادعين الذين لا يجب خاصة تصديقهم عندما يبيعونك مواد سلعهم الرخيصة على أنها أفضل تجسيد لعلاقة نوعية/كمية، غشاشين، أنيابهم حادة وبطونهم لا تشبع. منخرطين في شبكات ترويج الفوائض السامة التي تزودهم بها الدول بأسعار زهيدة للسكان المحليين في البقاع الواسعة والبعيدة عن التحضر منذ أمد بعيد. فلا شيء يمنعه القانون في بلد الشبق، وتبادل الجنس، والملصقات المزيفة، وملوك اختصاص الاختلاس الوراثي.

وراء المنظر الظريف لهذه المدينة التي لا حد لقواعد اللياقة الأولية فيها، كان زوج وزجته يقدمان بدون مقابل عرضا يرضي عشاق هواة العنف.

تجذبهم للعرض كلمات البذاءة للزوج الذي كان يتخلص بقوة من فائض الكبت لديه فيصب جام غضبه على زوجته، طالبا منها العودة السريعة إلى منزل الزوجية. غير أن المرأة المعتزة بنفسها لا تعيره أذنا صاغية. وكانت مضطربة العينين، متعجلة خاصة للقاء أخيها، وهو بائع للأقمشة متجول قد يتحول إذا دعت الضرورة إلى ملاكم هاو يعيد متعنتا كهذا إلى رشده.

هل كان الجمهور كارها لهذه الفرجة ؟ على العكس تماما يظهر من خلال الحكم على سلوكه أنه يجد متعة لا تقاوم أمام هذا العرض الممتع للتمزق العائلي في انتظار خلاصة المعركة. كل شيء جميل لمن يساهم في إيقاف ما يسمى بتحرير المرأة وترقيتها السريعة، وتفادى فساد عاداتنا عند التباس الأمر عليه بين الحرية والفسق. وغير بعيد عن هذا المكان، كان رجل أشعث الشعر، يرتدي سروالا

رياضيا، ويضع صفارة في فمه يحكم مقابلة خيالية في كرة القدم وسط الطريق مباشرة على حساب السيارات. مبديا تذمره من اللاعبين، وموزعا أوراقه الحمراء للعابرين والمتربعين. توقفت المقابلة فجأة لاقتراب سيارة رجال المطافئ النائحة بأقصى ما أوتيت من قوة، بصفاراتها وأضوائها اللامعة لإخلاء الطريق. لقد كانت تنقل جريحا نحو المستشفى المقابل مديرا ظهره للشارع الموجود فيه مركز الاستقبال الذي كنت أقيم فيه، والسجن المدني.

كان الألم يمزق رجليّ. وصلت إلى المركز منهكة القوى. وكان الشرطي الذي يتابعني من بعد يتعاطى هوايته المفضلة على أرض الحياد، وهي مفاصلة الساعات التي يجلبها مهربو الإيمان من الأراضي المقدسة. وكان المتواطئون معه في إخفاء البضائع ظاهرين للعيان كالحرباء في الليلة الظلماء.

وكانت مقيمة مسنة من مقيمات المركز جالسة على كرسيها المتنقل والمترنح تحملق في زوايا مدخل باب المركز. لقد كانت تنتظر أقرباءها. وهي

هنا منذ الصباح الباكر. وستكون هنا غدا في شعيرة انتظار مستمرة منذ ست سنوات.

قالت لي مديرة المركز وهي منشغلة نسبيا بقضيتي:

- إنها هوايتها المفضلة، طاقة لا تقاوم في الاقتراب من ذويها تدفعها للقيام من سريرها يوميا وفي نفس الساعة سواء كان الجو ماطرا أو عاصفا.

كانت المديرة تغطي شعرها بقلنسوة عريضة لتخفي شعرها الأبيض المنتصب مثل وشاة على صدغيها وتلعب دور الحارسة. كنت في فترة الاستنطاق هذه تحت مسؤوليها التامة والكاملة.

نصحتني السيدة الظريفة التي سرت عندما رأتني عائدة بشيء من الهدوء، قائلة:

- الأفضل لك أن تذهبي للأكل. لم يبق لدينا كثير منه، وذلك لأننا استقبلنا قادمات جديدات.

إستيقظت قبل طلوع الفجر لترتيب أفكاري.

طويت بعناية الملحفتين القديمتين قبل بدء عملية الراحة التقليدية. كان يخيم صمت مميت على هذه الأجسام الممددة المجهولة التي تشبه الجرار التي لا

جدوى من استعمالها. ماذا تريدون أن يحدث من جديد في أفق هؤلاء العجزة، المسجونين في الذكريات، المستسلمين بانقياد للذوبان في العدم ؟

ليس لهم الحق حتى في الرتابة. لو حدث ذلك لكانت له أهمية كبيرة في حياتهم. رجتني مديرة المركز أن لا أتمادى كثيرا في السير في الممرات.

قالت لي آمرة:

- قهوة الحليب على وشك الإعداد إن شئت تناول فطور الصباح الآن.

لقد لقنوني جيدا القانون الداخلي بهذا الاهتمام الشحيح بشخصي. فاستسلمت لهم.

* * *

تركت السماء الملبدة بالغيوم ضوءا خافتا للشمس الصهباء. وكانت نهاية الطريق التي أعبرها للمحافظة مزدحمة بالمارة . وقد تحولت الأشجار ذات الأوراق المغبرة التي تنتصب على الرصيفين العريضين إلى مظلات للمتسولين الذين تدفع بهم الضواحي إلى سوق الهواء الطلق. ولم يكن المتسولون يرون المدينة وإنما ينظرون إلى الجيوب.

وجميع الخطط مقبولة لإحاكة الحيل، والظفر بما تجود به النفوس الرحيمة: نظرات الأطفال المتمسكنة، والشهادات الطبية التي مضى عهدها، وأكياس البول المختلسة من المراكز الصحية، والأرجل الخشبية المصطنعة وغيرها.

وعلى الطريق تقطع السيارات الجامدة في أماكنها حركة السير كلية. وفضلات الحمير والبغال القادمة من عمق البلاد تزكم الأنوف بروائحها. تفوح رائحة الإسطبلات من هذه الأماكن القذرة وتلوث جوها. ويحمل العاطلون عن العمل أنواع البراز الكريهة الرائحة، جاعلين منها كويرات يقذفون بها في الوقت المناسب راكبي الحافلات المكتظة التي مضى أمد بعيد على ضرورة خروجها من الخدمة.

وكانت هذه التسلية تجعلهم ينسون، لوهلة ضحكة حادة مجنونة، هذيان سوق تغمره التجاوزات.

و هناك، في زاوية أخرى، أطفال مزعجون سعداء بتوليفاتهم وسلاطة ألسنتهم المرهفة، يلصقون آذانهم على زجاج السيارات لسماع آخر الإيقاعات

التي تخلب الأذهان من خلال مكبرات الصوت المنتصبة فوق المقاعد، والمنبعثة في كل الاتجاهات. يغمرهم واقعهم الراهن، ولا يفكرون في المستقبل أبدا. إنهم يكرهون يوم الغد. تنتهي آمالهم عند حد لعبة الاستبعاد. إنها تسليتهم المفضلة. لكل منهم ما يثيره حتى إن أظهر الحلم بكل وضوح أفضلياته وتمايزاته.

اليـــوم الرابع

تقدمت نحو محافظة الشرطة في الموعد المتفق عليه في تلك الصبيحة الرتيبة الموقّعة على نَفَس مدينة تغالط بجدارة العالم الذي تعيش فيه، مدينة محاصرة بصفة مستمرة بالوعود المعلقة واللوم المستدير إلى الوراء. وأنا في المواجهة الرابعة مع السلطات.

وصلت المرأة المسؤولة بسرعة الإعصار. توجهت مباشرة إلي. أخذت يدي دون أن تنظر إلي وانحشرت في مكتبها ولم تحيي مساعديها المقابلين لها. بادرتني بصوت آمر فيه شراسة واضحة مصحوبة بضجيج خطواتها قائلة:

- اجلسي.

دفعت بكرسيها إلى الخلف، وكلمتني بنبرة مشوبة بالترقب، لكنها حذرتني بصوت جاف:

- يجب أن تقولي لي كل شيء.

فقدت الشعور بالاتجاهات نظرا لهذا اللقاء الصباحي الذي أقل ما يقال فيه إنه بارد. وفقدت

مجددا وسائل الرد النى كنت قد وعدت بذكرها في الوقت المناسب. إن النزعة الطبيعية المناسبة التي اعتقدت اكتشافها لدى هذه الموظفة، أو لنقل المليحة في هذا العالم البخيل بالكلمات قد صارت موضوع شك بسبب الحركات المرعدة حتى لا أقول المجافية. ووجدت نفسي فريسة ترددداتي الأولية. هل أنا مدونة بصفة دائمة في خانة الموبوئين ؟

رشقتني المرأة المسؤولة بأسلوب مباشر قائلة:

– تريدين أن نساعدك على تذكر المراحل التي أثرت فيك أكثر من غيرها؟

جعلني الاستجواب المباشر ارتعش. إن استيداعي في الحبس الاحتياطي لسجن النساء الذي بنته الحكومة حديثا بمبالغ باهظة قد أخذ شكله النهائي. هل سأكون أول امرأة تدشن مؤسسة "إعادة التربية" كما يقولون بتورية خادعة؟

وما دمت غارقة في هاوية لا نهاية لها، فقد تصورت جميع سيناريوهات تنفيذ الأحكام التي أخبرت بها أثناء مقابلتي الأولى. وفي هذا التدهور العارم أخذت أدندن بأغان قديمة تعلمتها من والدتي،

وغنيتها بدوري لابنتي "درة" لكي أجعلها تنام. مزقت هذا الهامش من السلوك ضحكة مدوية شديدة المرارة من المرأة التي ·أمست أقل تسامحا قبالة مأساتي. وبالمقابل، ودون أن أجد تفسيرا لهذا فإن تجاهلها لشخصي قد كان له وقع صدمة كهربائية علي، تحول جعلني أعود إلى الطريق بسرعة البرق. وصرت أتحدث أفضل من قاض، وأفصح من محام. وأحسست بقوة مضاعفة في داخلي لا يمكنني تحديدها: سر آخر من أسرار عقلي لا أستطيع تفسيره.

كان هذا الحوار الاستبطاني كافيا للتخفيف من عذابي. لم تُصغ المرأة المسؤولة أي ملاحظة إضافية "مجافية" كما أنها لم تحد عن مهمتها قيد ذرة. ومن جهتي لم أحاول مرة واحدة أن أتنكر "في اعترافاتي للأحداث" للعلاقة الخاصة التي تفرضها القوة العمومية على كل مخل بالأمن الاجتماعي.

أصابني تحول ذهني عميق وتكون بداخلي رأي ميتافيزيقي معاكس لحظي العاثر.

لقد كان كلامي هادئا ومنتظما يكاد يكون صياغات كاملة:

- إن وفاتها قد كانت نتيجة إخفاق مشترك. لقد أصبحت مومسا في أماكن الشبق التي نسميها مواخير، وذلك بسبب بناة الحقد. وتحولت أنا إلى خرقة بشرية في الطرقات والأطلال بسبب نظام يتغذى من التعريض والشبهات. ما من أحد منّا نحن الاثنتين كان يتمنى هذا المصير. لقد كانت فتاة شجاعة؛ وسليلة عائلة عريقة ولعلني كنت أنا كذلك. وشاءت الأقدار غير ما نرجوه. إن مأساتنا المتقاطعة تكمن في أننا التقينا في وقت سيء، كل منّا كانت سجينة لدى كتائب القتل. يحترفون الإبادة، ينصبون أنفسهم أباطرة مطلقين على أجسادنا وميولنا.

* * *

خفت شعلة الغضب لدى المرأة المسؤولة شيئا فشيئا، وتراخى القناع، وتشكل بالألوان، وامتلأ بالعواطف. بدا لي أنني أقرأ على وجهها الاهتمام بالنهج الذي اخترته لتعرية الأوضاع المؤلمة القاسية

التي عانيتها. أكدت لي ذلك بهزة مشجعة من رأسها، وهي هزة لا تقوم بها عادة إلا للدلالة على التوقف.

أولت هذا القبول الصامت كعلامة نهائية للثقة، زيادة على كونه موجها لنفاية المجتمع التي أمثلها.

شعرت بأنني طليقة ومتشجعة لمواصلة الحديث.

- استضافتنا فور فرارنا عائلة متواضعة. وبعد بضعة أيام توسلت إلينا أن نغادر البيت الريفي. وفي حالتنا لم نكن نأمن أحدا. أضف إلى ذلك أنني كنت حاملا بالبنت التي سأتخلى عنها في ما بعد على الرغم من إرادتي.

ترتبت عن هذا الاعتراف نظرة أخرى، نظرة خطرة وملحة. أصبحت ناقدة متفحصة لجميع الأحداث والحركات لمحيطي، لكنني كنت غير مؤهلة لاستغلال الإيحاءات التعبيرية هذه المرة.

وبدون ريب فإن الذي قلته لا أهمية له بالنسبة لامرأة متعودة على النفوذ بدون رخصة داخل الحياة الشخصية للأفراد الذين هم في انتظار المحاكمة.

لا أخفي عليكم، أن قلقا عارما قد ساورني مجددا. وبكل إخلاص فإن حالة غير مرغوب فيها مثل حالتي لا أطمح معها بالشفقة. وكنت من الناحية الأخلاقية والمادية عرضة تلقائية للتخلي. من النادر جدا التوقف أمام المستبعدين أمثالي، ولا سيما في هذه الأماكن المؤهلة لسوء المعاملة والمنغلقة على قراءة تتخذ الأخلاق معيارا. كنت أناجي نفسي. وكانت المرأة التي أمامي هادئة إلى حد الغرابة، متفتحة نحوي بمزاج قليل الاهتمام بالدراسات النفسانية. في الحقيقة لقد كانت في المصلحة. وهو عنصر لا يجب استبعاده. وهذا ما يفرق بين وظيفتها وسجلي المتمثل في حطام إنساني غير مكتمل.

* * *

وبقدر ما كان التحقيق يتقدم بقدر ما كان يوسوس بداخلي هاتف، يقول أنني على الطريق الخطأ، وعلي أن أتمالك نفسي. ولكن، ماذا يمكنني قوله غير أن أقص حكايتي كما عشتها دون رضى

عن الذات، أو أصباغ مضللة ؟ ليس لي غيرها ولم أولد مع كل أسف لسرد الحكايات الأخرى. إنها مرسى .آلامي الوحيدة. ولا توجد بين شفتي التعابير الجاهزة التي يستعملها المتعودون على الإجرام في أحاديثهم اليومية عندما يكونون في مواجهة المحققين الذين يحشرونهم ليقروا بالخطإ. فقد كنت محرومة من التعليم المعمق لاقتصاري على نزر يسير من دروس العربية التي شكلت مرصدا لسنواتي الأولى، كما كنت محرومة من لعب الأطفال الذين كنت أحسدهم. درست لمدة قصيرة جدا في المدرسة وذلك بسبب بعدها عن مقر سكنانا، وبسبب أمي المسكينة التي عجلت بمغادرتنا، علما بأنها لم تكن مهيأة لترسخ العلم في رؤوسنا لسبب بسيط جدا بل ساذج .

ذلك أنها لم تكن تعرف ما العلم، لقد كانت أمية بالوراثة.

كان أملي الوحيد في هذه الأثناء هو أن يتركوني أقص عليهم حكايتي كاملة. ولاقتناعي العميق بهذه الفكرة فقد كنت ألح على أن أبقى متيقظة دوما. ولم أكن آمل.في التخفيف من خطئي

بالتعلات والتذرع بالظروف المخففة، ولا بالتضرع لاستجداء أريحية القضاة. لا لقد كنت أريد أن أبرز الأسباب الدقيقة للعقوبة التي تنتظرني. هذا ما كنت أريد أن تشعر به المحققة التي تنتظر بقية حكايتي.

– إن المشردين الذين كانوا يعتنون بي قد أظهروا طيبة استثنائية قبالة المرأة الحامل التي هي أنا. فقد أدركوا بسرعة أن الرجال الذين يسمون متحضرين كانوا أشد قسوة مقارنة بهليكة جهنم التي هي أنا. فقد كانوا يعلمون بأنهم قد اكتسبوا خبرة طويلة جدا في إدراك العالم الذي أنا بصدد اكتشافه.

سوف أضع مولودا لن يعلم أبدا لمَ سحبته ورائي إلى هذا المستنقع المتحرك حيث لا مكان فيه للشكوى أبدا. إننا لا نشكو عندما لا يكون بين أيدينا سوى ورق التعليب المقوى حجابا للحميمية يا سيدتي!

– كفى هذا اليوم !

قالت لي ذلك بعدما وضعت نظارتها.

أشك كثيرا في أنها كانت تبكي. هل رأفت حقيقة لحالي ؟ أم هي لعبة من ألاعيب الشرطة

الشريرة ؟ أم هي حيلة مهنية تتجاوزني ؟ كانت هذه الأسئلة وكثير غيرها. تعذبني ولكنني أرفض أن أتشبث بالحظ وحده. حظ قرر كل شيء بدلا عني.

وفي كل الحالات، وفي حالتي المفجعة هذه لم أكن مهيأة البتة لأن أولي أهمية أكثر مما يجب لحكايات الجنيات الطيبات. أما أمزجة محققينا فهي متقلبة مثل تقلب اليوم في الطقس المداري. إن رحمتهم الوحيدة هي أن ينجحوا في الزج بك إلى السجن.

* * *

قضيت ليلة اليوم الخامس من التحقيق محملقة العينين قلقة في مركز الراحة حيث أودعت؛ قضيتها متكئة على سريري أجتر سجل إخفاقي المتتالي إلى حد التخمة. أمام هذا الكم الهائل من الاختبارات المعيشة والآمال الضائعة، فوجئت بأنني كنت أكلم نفسي خفية كي لا أزعج المرأة العجوز التي تقتسم معي الغرفة والفاقة والتأسف المعلن. فلقد حدث أن أغضبتها مرة أو مرتين بحديث ماضي القريب

منسوجا بالانخراط التام للأوساط الليلية، والميول غير المعتدلة للمهدئات ذات المفعول المؤقت والرغبة بنشوة جرح الأوردة. كنت أبثها اعترافاتي لكي لا أحس كثيرا بالوحدة، غير أنني في ذلك اليوم لم أكن أرغب في أن أحدث فيها ثورة أخرى. لقد كانت خائرة جدا ولا تتحمل كل كلام. بينما كانت تتملكني فكرة أنهم يحملوني جميع الشرور التي يولدها العالم المحيط بنا. أدرت إليها ظهري وانطويت على جميع نقائص وكوارث مسار حياتي القريبة لكي أقرنها بحاضري المفتت. كان الرجوع للماضي حارسي المؤتمن على ضميري.

في اليوم الموالي غادرت المركز في اتجاه المحافظة متبعة نفس المسار. كنت أقطع الطريق جارة الخطوات مثل كلب دون رسن، مرتبكة ولكنني لم أكن منهكة أبدا. لقد كنت متعودة على رغبة امتصاص الأقراص. ولكن دون إثارة كبيرة. إن الدروس الثمينة لحماني "الأثرم" قد ساعدتني على التعديل من رغباتي وإيجاد بدائل نفسية لها. نصائحه كانت دائما مغلفة بحرارة تعبيرية معدية. كان

موهوبا بملكة كبيرة للملاحظة ولا يتسرع أبدا بإلصاق الصفات على أشباهه. والعيوب دائما مشتركة لديه.

مثلها مثل أخطائنا ! لقد كان صاحب انتباه نادر، عندما كان يثنيني في أوقات الوحدة الفظيعة عن اختيار الحلول المتطرفة. كان دون شك، فقد كان بالنسبة لي الأب المتيقظ، والدليل الذي لا يخطئ. وكان لديه شعور القياس بكل شيء، يحتقر في الآن نفسه شكوى الأذكياء كما يحتقر المتذمرين الدائبين. ولم يكن ماكرا ولم يطمع في أي أفضلية. هو الذي ضيع أعضاءه التناسلية في معركة ليست البطولة فيها كلمة تافهة ولا هي لعرض وثائق البطولات المبتورة. وتبقى آلام الوجود هي مدرسته المفضلة. وقد أورثتها.

اليــوم الخامس

خرجت قبل الوقت العادي تقريبا، والجفاف يعقد حلقي مثل العادة، توجهت إلى المحافظة "وكان حارسي هنا" على بعد مسافة معتبرة مني.

كان هواة المخدرات قد غمروا اممرات الراجلين المكملة للساحة العارية التي تتبوأها مسلة تذكارية مفجعة تحيط بها حلقات ملونة بالأبيض والأصفر.

مزيج من الألوان المثالية للرسميين.

يستيقظ الباعة قبل الجميع ليبسطوا سقط الأمتعة في كل مكان، محتلين جميع الزوايا وإن صغرت.

مجالهم الحيوي يبقى التدافع وهم متسلسلون في خطوط لامتناهية للبيع بالمزاد العلني، مشكلين حصارا على الزبائن إلى حد الإنهاك. وغدا سوف يكون يوما آخر في فناء النقود هذا الذي لا يروض.

بالقرب من الساحة تنتصب مباشرة عمارة الشرطة. وموقعها في هذا المكان ليس صدفة. إن بناءها يستجيب لهمّ أمني عاجل: يجب احتواء العامة في حالة ما إذا ... وبسرعة.

لم يعرني رجال الشرطة الذين كانوا في الحراسة أمام المدخل أي أهمية. ولم يعد الاستدعاء الذي أنتظره قبل كل لقاء وثيقة ضرورية لدخولي إلى عرين المتمسكين باستخدام القوة. واضح أن هذه الفسحة لا يمكن وضعها تحت حساب الشفقة، فلم أعد معدودة حتى كشيء ملفت للانتباه. كنت شاعرة بأنني لا أمثل شيئا كثيرا في نظر هؤلاء المبشرين الأشداء بالنظام. وبهذه الصفة يكونون قد خففوا المهمة عن هذه المخلوقة غير المرئية، وخففوا عن أنفسهم مهمة العمل الذي أوكلوا به. كما لم يكن من الضروري مرافقتي إلى المكتب الذي تعودوا استجوابي فيه. أعرف الطريق وأعرف ما ينتظرني.

* * *

وجدت المرأة المسؤولة، التي صرفتني يوم أمس، منكبة على دراسة ملفي. ردت على تحيتي الصباحية بهزة من رأسها، وتابعت قراءتها للأوراق المرقونة التي وقعت عليها خلال استجواباتي الأولية. ولما كان جذعها مائلا إلى الأمام لم استطع

أن أحدد بدقة إن كانت على نفس الحالة النفسية ليوم أمس أم تغيرت. ومرة أخرى أحسست بضيق كبير قبالة هذه التي لا تترك أي أثر خارجي يظهر عليها، حتى إن أبدت ملامحها الخارجية هدوءا واضحا. إنه إنه نوع من أنواع الارستقراطية الهادئة. صلابتها الأولية قد جعلتني متوعكة المزاج. لم أجد ما أتعلق به في معبد الأقنعة هذا. كل شيء يقوم على الظاهر والتصنع المزيف. شحيحة في لوك الكلمات كعادتها.

ودون بطء أعادت فتح سجل الأسئلة.

– ما هي المدة التي قضيتيها أنت ووليدتك بين المتشردين ؟

– ما يكفي لتعودي على الأقراص.

لم تبلبلها إجابتي المختصرة التي تشبه سؤالها المختصر، فراحت تطلب مني أن " أبذل مجهودا" لكي تتعرف جيدا على تقاليد رجال الشوارع. لقد كانت تريد أن تحدد دوري في الأحداث التي أذكرها لها كل يوم.

أكدت لي قائلة:

- من خلال المعلومات الدقيقة يمكننا أن نعيد تشكيل العالم الذي قادك إلى القيام بالقتل.

ما طلبته مني بصوتها الرقيق الهادئ قد حررني من ارتباكي ومكنني من سرد حكايتي كاملة، أجهر عن المسكون، وأوشي منمنمات حياتي.

- لا أخفي عنك بأنه قبل ميلاد ابنتي، كان استهلاك الأقراص في رأيي هو الوسيلة الفضلى للتخلص من الجنين، اختيار مجنون ولكن لم يكن لدي بديل آخر. إذ لم أستطع أن أهضم اختلاط دمي بدم المجرمين الذين نهبوا مني شخصيتي وجردوني من شرفي كامرأة. كما لم أتصور أن تتحد بويضة من بويضاتي بحيوان منوي حاقد على الحياة، وتعطي بعد تسعة أشهر من الحمل البغيض لقيطا فرضه العنف علي. لقد كانت الفكرة عندي لا تطاق. لا يمكن رأب الصدع بين الضحية و جلادها.

كانت هذه الرابطة الإجبارية تجعلني في ثورة.

وكنت استهجن كل علاقة غير طبيعية يمكن أن تجبرني في يوم من الأيام على أن أمد يدي إلى المؤشر الحقير على آلامي الماضية.

كلما مر يوم من الأيام كنت أغرق في فوضى فكرية. وأصبحت الأقراص التي اقترحها علي صعاليك الليل عكازي المفضل. وبعد مدة معينة لم أعد استطيع الاستغناء عنها. وصارت تخفف من آلامي المادية وتوهمني بوجودي في هذا المسار المتشتت. يظهر أن الرضيع بدوره لم يكن يشكو من المعاملة التي سلطت عليه. فكان مثلي في شره مرتاحا و متجددا. وظهر التسمم المفترض بالمواد الكيماوية كعلاج فعال ضد جميع أنواع فقدان النظافة التي كنا نعيشها في هذه الأوساط المعادية لكل قاعدة أو استعمال منزلي تقليدي. لا يجب الكذب، لم استطع أن أتخلص من هذا الارتباط الذي كان يجلب لي كآبة هادئة لا أجدها في أي شيء آخر. وبقدر ما ابتلع كنت أطالب بالمزيد.

ومن الماخور الذي تقيم فيه صديقتي صفية، كانت تصلني من وقت لآخر مبالغ مالية كهبة عن

طريق وسيط مواظب، كنت أبددها كلها تقريبا في شراء هذه الأقراص العجيبة التي تهدئ هذياني. كنت رهينة الأقراص بصفة واضحة، فهي تساعدني دون انقطاع في التغلب على القلق المستمر. كنت أبحث أثناء تناولي لها عن سعادة وهمية في طريقين متعامدين بيني وبين أولئك المواطنين العابرين بالقرب مني الذين ينهشهم عذابهم اليومي "المطـ " بالرضى المادي المباشر، لذويهم، و أما أنا .

* * *

وقدم المولود غير المرغوب إلى هذا العالم دون أن يصرخ محذرا. إنها بنت، هادئة هدوء الإهانة، وخفية خفاء الأحزان التي تطرق أبواب الفاقة، قدمت دون أن تفرض أي شيء من الأشياء ما عدا صدر تنام عليه. وصرخت صرختها الأولى في دار خربة قديمة دون سقف أو باب، فضاء عمراني صغير هجرته الجرذان، ويستعمل مبولة عمومية عندما يتخلص البرد من رحمته ليلبس معطف الشدة. وكانت قابلتي رجل ! نعم رجل،

حماني "الأفرم". المجاهد الذي لم يحصل على أوراقه. و هو الذي اختار الاسم اللذيذ "درة". وهو نفس الاسم الذي أطلقه على ابنته الوحيدة المتبناة من قبل، والتي غادرته في مقتبل العمر في ذهاب دون إياب. فقد تعلقت بحب رجل أجنبي وعدها بسقف لائق وأطفال شبعى، في الضفة الأخرى من البحر. وحماني لا يستطيع أن يضمن لها النزر اليسير من العيش، اللهم إلا الحب. والحب لا يكفيها مع الأسف ! لقد كان المجاهد هو الممثل النموذجي لمن لا ملجأ لهم منذ أن يئست امرأته من تأهيل الزوج، فغادرته مهملة بنتها الصغيرة و بيتها الزوجي معا. و في سورة غضبه باع الجدران الزائلة الملاط وأثاث الجدة، ولجأ إلى الأغوار العميقة في الأحياء القديمة. هنا حيث لا أحد يغامر ويطلب منه العنوان من أجل أن يحمله إلى لجنة تأهيل قدماء المحاربين. فلم يكن يتشبث بحضور اجتماعي تحدده الوثائق الرسمية، ولم يكن التكيف الزائف أنتوى نقاطه. ببساطة، ودون أن يتحول إلى مرشد كان يقول أن له إدراكا آخر للمساهمة في حرب التحرير الوطنية.

ولم يطلب شيئا من أمثاله أبدا. وكان يجعل نفسه على هامش الحياة كناسك، ورع على الأقل.

لم يكن حماني يبتعد عني قيد أنملة، كان يرعى الوليدة رعاية لا مثيل لها. لقد ولدت علاقة عاطفية جديدة بميلاد الرضيعة. فهو الذي يأتي بقطع القماش التي تستعمل لفافات "لدرة". وهو الذي يجففها أيضا على أسلاك الكهرباء المقطوعة، ولا يتوانى عن تزويدي بنصائحه لتربية ابنتي.

لقد تفانى معي تفانيا مطلقا دون حسابات في هذا العالم الموازي المكون من عدم الاستقرار المزمن، ومن التضامن الرائع على الفاقة المشتركة أيضا.

وخلافا لما كان متوقعا، فقد أبديت قدرات عالية في أن أكون أمّا تمنح ثديها وتمسح على رأس هذا الكائن عليق أيام التبادل الجنسي في أعماق كهوف البؤس والشقاء. واستمر أصدقائي المتشردون من الشيوخ والكهول والصغار وأطفال المزابل الذين كنت أشاطرهم أحيانا جرعتي من الأقراص في

القيام بنفس المهام لتسيير حياتنا العادية، وأولها العناية بالقادم الجديد لقبيلة لا مأوى محدد لها.

وكان حماني "الأثرم" يقول: " ليطل الله في عمري لأحضر زواجها". وعلى الرغم من إصابته بمرض صدري أقعده أسابيع كاملة فقد بقي متفائلا.

"هناك من هو أتعس مني ومنك" يقول لي ذلك كي يرفع من معنوياتي. لقد كانت له قدرة عجيبة على تحويل العقبات إلى أوراق رابحة. كان يطمئنني قائلا: "أنت وأنا من نفس الضفة، أنت فقدت ذويك وأنا فقدت عائلتي".

يباغتك في كل مرة بتحديد لمعنى الحياة. كان يتميز بحس دقيق للتعاون، ولا يشكو أبدا من الاحتقار المعلن علينا من قبل السلطات المحلية. غير أن هذا التضامن اصطدم بقرار بلدي أعمى على صورة مدينة متخمة بالشكوك والقلق الذي يصعب تحمله: لقد وجد جيراني في الفاقة أنفسهم مجبرين على مغادرة المكان وإلا تعرضوا إلى عقوبات قانونية صارمة. تخيلي روحا للقوانين في بلد غمرته قوانين الغابة منذ أمد بعيد. بلغ إلى سمع حماني أن

البلدية تتأهب لإزالةالبناءات القديمة كلية من النسيج العمراني الذي نقيم فيه، وذلك لتوسيع الطريق المؤدي إلى الحي السكني الجديد الذي حدد مكانه على هضبة المدينة المواجهة للبحر، وعلى عتبة ضريح ولي صالح خربه خلفاء العدم بحجة أنه يظلل عليهم أثناء طقوسهم التطهيرية "لإنقاذ أرواحنا الضالة". أولم يدفع جماعة محاكم التفتيش الجديدة، المبشرون الجدد لأزمنتنا المعاصرة برعاياهم من حملة المباخر للتظاهر والتنديد بالديمقراطية "الحرام"، ومحاربة التقدم الزاحف " للكافرين الغربيين" الذين هم نحن، في نظرهم ؟ شأنهم في ذلك شأن كنيسة القرون الوسطى التي كانت تقيم المسيرات ضد هطول البرَد. مَنْ منّا لا يتذكر العشرية الكابوسية التي جعلت من آلاف الأبرياء ضحايا، وجعلت مني خرقة بشرية، مثلي مثل كثير من أخواتي اللواتي اغتصبن، أو حملن، وتركن لحظوظهن التعيسة، هذا لمن أسعفتهنّ الحظوظ وأفلحن في الفرار من مغارات الفضيحة والخزي.

كل هذا باسم تعصب ديني مقزز ومميت.

إن الطريق الذي تنوي البلدية شقه سوف يستعمل بعد الانتهاء منه كطريق مفضل للمواكب الرسمية التي لا ترغب في الاختلاط بالعامة وحفاة البشر أمثالنا.

أما ما يتعلق بي فقد وافقوا على مهلة قصيرة ينقلونني بعدها إلى مركز عبور للعائلات المنكوبة التي ليس لها مأوى، وذلك في انتظار إسكانهم بصفة نهائية. هذه مساعدة صغيرة للتخفيف من صروف الدهر الكثيرة التي أعاني منها. لقد حاولت مرارا وتكرارا أن أقنع هؤلاء الناقلين بالقوة العمومية بضمي إلى فئة الضالين، أولئك الذين ليس لهم أي وثيقة تثبت إقامتهم، ولكن دون جدوى. إن امرأة دون سقف، وعلى ذمتها رضيع من أب مجهول، لن يبقى لها إلا هذا المنفذ صالحا كسراب لتمويه فقرها.

وضعوني في مركز كان محشرا قديما للكلاب الضالة. و يبدو أنّ المحافظة على الكلاب أصبحت باهظة التكاليف للبلدية، ثم إن النباح صار لا يطاق بالنسبة للجيران. يتعرض السكان إلى صعوبات

جمة، وخاصة عندما يظلم المكان في هذا الحي الموحل صيفا وشتاء، والذي يسمى الإقامة السكنية، حي دون تخطيط أو أسماء للطرقات، مشوه ببشاعة بالبناءات الفوضوية والشبابيك الحديدية. ثم أتت رسائل الاحتجاج، المرفقة بوصل الاستلام، والموجهة إلى قاضي البلاد الأول أكلها. وسرحت الكلاب الضالة من المكان وعادت إلى محيطها الطبيعي. أي إلى المكان نفسه الذي كنت أتقاسمه مع حماني "الأثرم" وقبيلته. في وداع نهائي، كان هذا المجاهد الذي دون وثائق يتضرع لي أن أعتني "بدرة". كان يتوسل إليّ قائلا: "سأكون حزينا جدا لو وقع مكروه لها".

* * *

لكي يتأكد رجال البلدية من هدوء المركز أسرعوا إلى المكان على غرار كتائب قمع الغش، وعزلوا الرجال المتزوجين عن زوجاتهم. إن القانون الداخلي لمراكز العبور هو الذي يفرض ذلك. أو هذا ما أقنعونا به. أغلب الظن أن ذلك المنع يهدف إلى

صرف الآباء والأمهات عن انتهاك المخطط العائلي للدولة، وجميع العلاقات العائلية الأخرى. إنه أمر طبيعي، فهم ينتمون إلى كوكب آخر. وصار الجو بسرعة غير قابل للتنفس. وتحول المرآب إلى حلبة ملاكمة يومية. وصار التحدي يحوم في كل مكان.

واستعملت القوات العمومية أكثر من مرة الغاز المسيل للدموع لفصل المتنازعين، فرسان المشادات الشجعان الذين يدفعون ثمنا غاليا أكثر من الآخرين، وهو ثمن الفوضى. لقد كان منكوبو سخاء المنازل أقل سخاء من المشردين. لكل عائلة الحق في غطاء واحد، ومتر مربع من الأرضيات الإسمنتية.

كنت أروض نفسي على التفاؤل من غير جدوى. لقد ساءت حالتي إساءة كبيرة. وتأسفت بسرعة على الأماكن التي طردت منها. إن خراب الأماكن القديمة أفضل بكثير من الأشرطة اللاصقة التي تعلق على الخيام. وأخذت أطارد فطريا وجوه أصدقائي من المشردين ، وكأنني بذلك أبحث عن تخفيف وطأة آلامي. وأخذت أحن لحماني "الأثرم".

كنت أذوب حزنا، وجاءت "درة" وافتقدت زادي من المهدئات.

في هذه الأثناء ظهر الرجل الوسيط الذي سوف يقلب حياتي مرة أخرى رأسا على عقب. جاء كاشفا رجله اليمنى وقفاه. لقد كان مكلفا بمهمة أخرى غير تلك التي تتعلق بتسليمي النقود التي ترسلها لي صديقتي. إقترح علي أن أتخلى له عن ابنتي مقابل "مبلغ مهم من الدراهم أتقاضاها في الحال". " إن العائلة التي أبدت رغبتها في تبني الطفلة موافقة على أن تزوريها متى شئت". بهذا الكلام ختم صفقته بذكاء. تلقيت هذا الاقتراح كرفسة مؤلمة من حصان. و أنا ضائعة في تيهاني الروحي أجبت بالنفي، مردّدة «كلا، كلا». و كأنه مفاوض تجاري متمكن، جردني الوسيط من إرادتي بنظرة واحدة وهو يذكرني متهكما بالفاقة التي أتخبط فيها أنا وابنتي.

لقد كان أريبا فظا ! كانت مفرداته المداهنة أكثر جرأة من اللاء المترددة الصادرة مخففة عن فتاة محمومة تائهة. وبحركة سريعة انتزع مني "درة"

النائمة ودفع إلي المبلغ المعلوم مثل محضر قضائي يصل بغتة من مكتب. كيف صنع ليجدني ؟ وكيف استطاع خاصة أن يقنعني ويتغلب على تردد أم متمسكة نسبيا بفلذة كبدها. لا أعلم ! لقد كانت حججه أقوى من حججي. وكنت تائهة تماما. كنت أصارع سديما من التوعك والظن المكثف. وكنت أتساءل دون أن أجد بصيصا ولو ضئيلا من الإجابة. هيأ لي المبعوث حلا بديلا. أقنعت نفسي بأنه الأقل ضررا.

* * *

ورغم استفادتي من مأوى الفقراء هذا، استأنفت طرق الضلال ثانية. غادرت مركز العبور بشيء من الراحة تقريبا. دون ابنتي. لن تزعج بعد اليوم أحدا. بعد كل هذا، لم يعد هناك ما يجعلني أتشبث بقطعة من خيمة ممزقة أتنازعها مع هؤلاء الرحل الجدد الطامحين في سقف، والناقمين من كثرة وعود كاذبة. لقد كانت الثغرة مفتوحة، ومختبئة تحت بيرق

"المكتوب". واكتفيت بالعيش يوما بيوم. وعدت إلى وجهتي العادية المصيرية، إلى الهرب.

بفضل المهدئات التي أقتنيها من نقود صفقة "درة"، قادتني تجارة الضعفاء هذه إلى حافة الهاوية، قبل أن أجد نفسي في قعر هاوية حيث تلتهمني المخدرات. لم يكن السلم الدائم قريبا. ووجدت نفسي في مدار جهنمي جديد، وذلك لأنني لم أعثر على الوسيط، أو أي خبر منه، كنت أجهل أخبار ابنتي، وامتنعت رفيقة الماخور المحسنة عن أي شكل من أشكال التواصل معي. كنت أعلم تقريبا أين تتاجر بمفاتنها في جحور الشهوة المنقودة، ولكنني امتنعت عن زيارتها وأنا في الحالة التي كنت عليها. كنت خجولة من نفسي. كنت بشعة جدا ولم أكن موهوبة في فن إخفاء سنوات العذاب الموسومة بالإخفاقات المتكررة وبالقناعات المحترقة.

* * *

كانت المرأة المسؤولة تستمع إلي باهتمام، ولم تتدخل لأختصر التقرير الشامل الذي وجهته إليها، وبقيت منطوية على نفسها، ويداها متعامدتان. ولم تحتج إلى آلتها الراقنة المتشنجة تحت غطاء النيلون مرة واحدة خلال هذا اللقاء. غمرتني هذه القابلية غير المتوقعة بالراحة. إنها المرة الوحيدة التي أحس فيها أخيرا بالتوازن منذ إلقاء القبض علي، وذلك باسترجاع حقي في التعبير. وبموجب سوء الطالع الذي تكالب على شخصي، وقذفني إلى مقدمة الفضيحة، وانسحاب جبابرة القواعد العنيفة للاستجوابات الكلاسيكية، جاءني الفرج. كنت في الطريق السليم لكي أقص حكاية سقوطي إلى جهنم كاملة. هناك على الأقل شخص كلف نفسه عناء الاستماع إلي. فقد وافقت على اختياري. من المؤكد أن تشابك مسؤولياتي ومسؤوليات الآخرين ليس من السهل فكها. كانت الرابطة معقدة ولكنني كنت مقتنعة أن المرأة المسؤولة التي تكفلت بقضيتي شخصيا سوف تتابع قصتي بتفاصيلها الجزئية. هل استطعت لا شعوريا أن أخترق حجاب حديقتها.

السرية ؟ هل كنت أقل عدمية من الماضي ؟ حددت لي موعدا ليوم الغد وكافأتني بالخروج معي إلى غاية الباب الخارجي.

وعندما أرادت مفارقتي ربتت على كتفي مزعزعة بذلك الشكلية المفرطة التي تميز مؤسساتنا. لقد تلقيت تلك الحركة و كأنها هدية لذيذة. وتجاوز العطف الوظيفة. لقد أضحيت إنسانة قابلة للاختلاط مرة أخرى. لقد فتحت أمامي الرقة التي أظهرتها قبالتي المرأة المسؤولة آفاقا جديدة. إن القاتلة التي هي أنا يمكنها الآن الطموح في علاقة استجواب واضحة، ويمكنها التخلص من أوليات أبجديات القراءات التقليدية والأحكام المسبقة.

وصارت حريتي المؤقتة مرشحة للتوسع. ولم تعد مغتصبة. لقد انتصرت في هذه المعركة الأولية التي لم أخطط لها، يجب الاعتراف بهذه الحقيقة.

وصار المَلاَكَان المجنحان اللذان لا تخفى عليهما خافية يحييانني بأيديهما بلياقة. المهم، أنهما توقفا عن الاستهزاء عند تقابلي معهما. وهذا شيء كاف جدا بالنسبة لي. إن الإدارة التي تتحكم فينا لم

تعد تكتفي بأسباب القتل وحدها وهو الشيء الذي لا يحدث كثيرا.

يمكنني العودة إلى ملجإ العجزة دون كثير من القلق، على الأقل خلال الأيام التي تفصل وقوفي أمام القاضي. إنها وقفة وسيطة توفر لي المأوى والحماية في انتظار ختام محاكمتي. لقد اغتنمت إذن هذه المهلة لأسترجع مكانتي بوصفي امرأة قادرة على أن تبرهن على اتهامات مبتورة من الأساس. كانت تدفعني لذلك عزيمة صلبة. قلت في نفسي: ما دامت هذه هي المرة الأولى التي يحالفني فيها الحظ، لم لا أذهب إلى أقصى مدى ؟

غادرتني المرأة التي تقتسم معي الغرفة دون أن تودعني، لقد حيتني في نومها النهائي. في ذهابها إلى العالم الآخر، إنسحبت تلك المخلوقة التعيسة مثلما ينسحب الشبح، بلا ضجة، غطيت بمنشفة على وجهها وملحفة بيضاء تحمل ختم المركز.

إعتقدوا أنها نائمة. إنها ستستريح في سلام فعلا. من الآن فصاعدا لن تؤلمها دواليها التي تتخذ شكل غدد قرمزية.

لم أنتبه لوفاتها. غادرت سريري مثل العادة حريصة على أن لا أزعجها. وعند عودتي استدعتني مديرة المركز إلى مكتبها الحزين المؤثث بالورق الأصفر الشاحب والكراسي الخيزرانية.

وكان زوجها في الوسط يلعب لعبة الدومينو مع الحارس الليلي على طاولة منخفضة. لم يشعر اللاعبان إلا قليلا بوجودي. كمية تافهة لا تعني أحدا، لا سيما إذا كان إنسانا تلاحقه المصائب.

أخبرتني مسؤولة المؤسسة الخيرية بوفاة المرحومة وسألتني بنفس المناسبة إن لم تكن قد أوصتني بشيء. وهل لها أقارب يمكن أن يوفروا لها مأتما لائقا، أو أمنية أخيرة يمكن تحقيقها. أسرعت بالإجابة سلبا. وجعلت من واجبي كتمان تلك الهنيهات من الحياة التي أسرت بها إلي عجوز المركز . كانت تلك أمنيتها، أمنية المتواضع. طلبت مني مديرة المركز بشيء من الاستعلاء أن أجمع الملابس المشتتة للفقيدة. نفذت الأمر دون تردد. ولم أخيب أملها قيد أنملة. لقد كانت تظن أنني أستطيع أن أرشدها إلى المسيرة التعيسة للأرملة أم الخير،

تلك التي ذهبت من هذا العالم مثلما أتت، دون أدنى اعتبار.

حادث عابر لم يسمع به أحد ولن يذكره أحد.

إنه مصير المجهولين أمثالي. لم الكذب؟ إن الفراغ الذي تركته أم الخير لم يشغل بعد. فقد تعودت على معاشرة الانحطاط. وأكثر من هذا فقد كنت كاتمة أسرارها الوحيدة، وشكلت في النهاية معها وحدة لا انفصام لها بعد رحيل فيالق "المعذبين في الأرض".

* * *

تستمر المطاردة في المطبخ بعد العشاء تحت طاولات الطعام التي لا نهاية لها بين زوج مسؤولة المركز وعاملات المطبخ، وهذا يشكل بالنسبة لي عرضا جنونيا وشاذا. فيتعاطون ألعاب الغرام والحظ إلى ما لا نهاية. فضاء يشع بالتفاؤل على الرغم من فرط التجازات، وتستمر فيه هذه الشعيرة المغلفة بالضحكات وعدم الاحتشام والتأوهات غير المراقبة

دون أن يقلل من سكينة المكان. يسبب لي ذلك إحساسا غريبا. تساءلت: لمَ هذه الرغبة المادية التي يظهر أنها تخلق تلاحما كبيرا بين الكائنات، قد بقيت غاصة في حلقي مخيفة وملعونة ؟ ومعلوم أنني كنت أنظر لعروض الدعارة تلك دون أن يشعر بي أحد.

ولا يظهر أن مديرة المركز منشغلة بالمغامرات الجنسية لزوجها. إنه يحتفظ بلياقته للمعارك الليلية اللذيذة، وهذا ما يثيرها ويهيئها لانتظار الزوج. كان ذلك يضجرني وأنا مختبئة. لأن الأجساد الوحيدة التي حرثت حميميتي دون مقدمات أو مجادلة هي أجساد الأعداء. إن اتصالاتي مع الرجال كانت بسبب الحوادث غير المقصودة أكثر منها بسبب التجاذب المشترك المرغوب فيه.

خرجت من المركز بسرعة الإعصار بعد أن تناولت و أنا واقفة قهوة في المطعم. أسرع الخطى. إن اليوم السادس ينتظرني. كانت المراقبة شاملة في هذه الصبيحة. وكان الرصيف العريض الذي يستعمل سوقا للمهربين الكبار وكذلك الصغار في

غليان كبير هذا الصباح. المفتشون يطاردون التجار.
إنما عملية ستدوم دوام المداهنة.

.

اليوم السادس

ظلّ رجلا الحراسة واقفا بالمرصاد، لا يزحزحهما أحد، وكأنهما جنديان من رصاص مسمرين على حافتي باب المدخل الكبير المصنوع من الحديد الصلب. تملصت من نظراتهما كي لا أجد نفسي ملزمة بسؤالهما إن كانت المرأة المسؤولة قد حضرت إلى مكتبها أم لا، وذلك لأن كل رغبة في هذه الأماكن يسبقها السؤال الشعائري: "من الذي استدعاك؟".

إنها مملكة الاستجوابات، وليست مملكة المحاورات. لقد تعلمت هذه القاعدة عند اقتحامي الأول لوسط المشردين، مخاطر الوجود قد علمتني أخيرا كل شيء.

كانت المرأة المسؤولة أكثر انبساطا. وكانت جميع أعضائي ترتعش لرؤيتها منبسطة، بل تكاد تكون جذلة. وقد التحقت بمكتبها مبكرا. وهذه علامة إيجابية، أو على الأقل أولتها أنا على هذا النحو.

و واضح أن قصتي قد أثارت حب استطلاعها. و لم شاهدتني مطت شفتيها بما يشبه التشجيع.

واختفى الشك المهني الذي بدا عليها في بداية الاعترافات شيئا فشيئا، تاركا مكانه لنوع من التفاؤل المتحفظ. فمن يوم إلى آخر كانت الحواجز القائمة التي بيني وبينها تتساقط الواحد تلو الآخر. وعندما تخطيت عتبة مكتبها بحيوية، وهنت – وهذا نادرا ما يحدث لي – لاعتقادي أنها في صفي أكثر مما هي في صف العدالة التي تمثل رمزها للقمع الأكثر وضوحا. كيف يكون حال مأواها الداخلي يا ترى ؟ لقد اعتراني هذا الإحساس خلال لقائنا الأخير. كان يبدو عليها ما يشبه شعور الأسف عند افتراقنا. أفترض أنني استطعت أن أهز فيها بصفة دائمة قوقعة الموظف الصارم المطبق للنصوص بحذافيرها.

أطلعتني قبل أن ندخل إلى صلب الموضوع على الصعوبات التي تعترضها لأداء وظيفتها، وظيفة يمتهنها الرجال غالبا، وهم أفراد قلما يتوفرون على أدنى حد من الكرم الإنساني.

الخلاصة، أفظاظ يجدون لذة كبيرة في تلميع أحذية موظفي العدالة وشدها إلى الأعلى بقوة، أي أحذية المسؤولين الأعلى منهم. وأسرت لي أيضا أن اعترافاتي الجذرية ليوم أمس قد أثرت فيها، وأنها ستبذل قصارى جهدها لتجلي الحقيقة كلها عن مأساتي. و بما أنني بقيت ثابتة القدم حول مصيري – الذي أعترف أنه ليس جميلا – ولكوني لا أسدل الستائر على الأسباب المتعددة للاغتصاب الجماعي والنتائج التي ترتبت عنه، فقد شغلها ذلك إلى أعلى درجات الانشغال.

* * *

دعتني للحديث عن الأسباب التي جعلتني قاتلة دون أن تتخلى عن رقتها. وقالت لي إنها كلها آذان صاغية. وحتى أكون مخلصة معها، كنت مستعجلة لأكشف لها الحقيقة كلها. إنها كيفية أخفف بها ثقل الاحتقار الذي أجره ورائي منذ وضعي تحت الرقابة

القضائية. كنت أشعر بأنني أبعث من جديد، شيئا فشيئا، بواسطة الكلمة.

– ضيعت وقتا طويلا، يا سيدتي، قبل أن أجد مكان عمل صفية في طرقات أشبه بالمتاهة، وتكاد أن تكون مغلقة كلية بأكوام الأنقاض و الدعائم المتهالكة للدور العتيقة التي هجرها أصحابها بسبب النظافة الاجتماعية. كانت تقيم بمفردها في مأوى من الحجارة المنحوتة، المنفصلة، التي تشبه الحصن أكثر مما تشبه منزل سكن. كانت بوابة المدخل مفتوحة على مصراعيها. لا أحد يعيش في الرواق الطويل المؤدي إلى صحن الدار المبهج بأزهار إبرة الراعي. تسلقت سلم الطابق الأول يقودني حدسي و كأنّني إنسان آلي. في الواجهة توجد غرفتها التي زينت بصور الفنانين المشهورين. وفي ركن أبرز بقوة إطار فيه صورة لأعضاء عائلتها تعرفت على وجوههم بوضوح تام. عندما كنا "مأسورتين، كانت صفية تخرج أثناء أوقات الاستراحة مدخراتها الثمينة وتعرفني على نسبها: "لم تبق إلا ناجية وحيدة منهم هي عيشة، وذلك هو اسمها. نجت من المجزرة

لأنها كانت تدرس عند خالي في إحدى مدن الساحل".

– كانت مستلقية على سريرها غير المرتب، مرتدية قميص حمام يكشف عن بشرة شاحبة، برونزية نسبيا على مستوى العنق. تفرستني ومطت شفتيها مطة استغراب ممزوج بالفرح الملتبس بالحرج. وبعد هنيهة من التردد بسبب المفاجأة، اعتدلت مستندة على مرفقها لتتأكد من هويتي.

– فركت عينيها مرة أخرى، قبل أن ترتمي علي وهي تلمس وجهي، ثم تحتضنني بقوة على صدرها الواهن بثقل الرجال. صاحت قائلة: "آه ! إنها هدية رائعة تقدمينها إلي ! عويشة". سعدت سعادة عارمة بمجرد أن نادتني باسمي.

وما أن مرّ زمن الغبطة وأضحى كل شيء هادئا بفظاظة، حتى تفادت صفية أن تنظر إلي، ولم أشعر أنا من جهتي بالشجاعة لمواجهة عينيها الجاحدتين كعيني ذئبة أم. بدا إرثنا المشترك للعيان ملتصقا بالبشرة و كأنه ذكرى لاذعة. كلتانا كانت مسافرة في جرحها البشع، موسومة بالحديد الأحمر

المخزي إلى الأبد. كانت بغيا وكنت مدمنة مخدرات.

تعاهدنا في هروبنا العجيب على اليقظة وعلى التعاضد والوفاء. ولكن الزمن البشع قد انتهى بأن تغلب على عدد كبير من مبادئنا.

تبخرت فرحة اللقاء. كان نفسها لا يكاد يسمع، متأوهة، لكن، الحمد لله ! لا يظهر أنها كانت تعاني من أي عاهة مادية. دموعها هي الوحيدة التي كانت تفصح عنها. أما دموعي فقد جفت. لا أنكر بأنني كنت غاضبة منها بعد أن فصلتني عن ابنتي "درة".

كنت أعتبرها خفية مسؤولة مشاركة في بيع وليدتي، غير أن جمالها كان يطفئ بداخلي كل غضب. قبلت حقيقة هذه الصفقة غير العادية مبررة ذلك بكونها طفلة غير مرغوب فيها، وبالتالي ليس علي أن أعاني يأس الوساوس، غير أن ذلك كان فوق طاقتي، وتغلبت علي غريزة الأمومة.

" أكتبي لي رسالة لخالي. أنا في حاجة للقاء عائلتي، ولحبها، لأنني لم أعد أعرف معنى كلمة

حب. أكتبي ولا تلقي علي أي سؤال، أنت تعلمين كل شيء عن قصتي، عن قصتنا".

تلك كانت كلماتها الأخيرة التي سبقت المجزرة في الحياة حفر من الصعب ملؤها. استرجعت القصة منذ البداية تقريبا متشجعة بحضور ذهن غير معهود من موظفة شرطة لأعري ذلك الحظ العاثر الذي جعلني في طريق قطاع الأحلام. - ماذا تمثل فضيحتي بجانب مجازرهم العمومية ؟ قبل أن أصبح قاتلة كنت قد أصبحت محكوما عليها بالإعدام بسبب أولئك المستنيرين الذين يزعمون أنهم يفتحون لي الطريق إلى الله عندما يقترحون علي الاغتصاب كعملة تبادل.

ما معنى زواج متعة في غابة مكتظة بالمجرمين البشعين والفتاوى الموسعة، إن لم تكن عقدا مخالفا لكل الأعراف والمرفوض من جميع الوجوه ؟

أخرجت المرأة المسؤولة منديلا من جيبها ومسحت عينيها دون أن تنظر إلي. متمسكة بمُثُلٍ

تعذر عليها إخفاؤها. مالت على جسمي الشنيع لتهمس في أذني وصوتها يختنق غيظا:

- أنت على صواب.

لم تتوقف عن فتل شعرها بيدها المرتعشة وهي بادية التأثر بالوصف الذي كنت أقوم به. لم أشعر بأي حياء عند وصف الحياة التي عشتها، وتحليل الرعب المعيش في تلك التجاوزات. لقد فتحت لي قلبها. ولم أعد بالنسبة إليها مثارا للامبالاة.

تولدت بيننا صداقة حميمية. وكل ما كان يذكر بجفاء سلوكها تبدد إلى النهاية. كنت مقتنعة بأنني وجدت شاهدا قيما في هذا الصراع ضد النسيان المتعمد:

لم أكن أندد بالدولة. وليس لي موهبة المتفيهقين بالشعارات السياسية المنافسة أو أي موهبة خاصة لأتدرب على ورقة طريق خطباء الجماهير. كل ما أتمناه هو أن أخفف عن ضميري الحقير كمّا من سوء الفهم. خاصة أنني لا أرغب في أن أتورط في سياسة التسامح. وبكل صراحة، يستحيل علي أن أتعايش مع مبشري الرعب. أرفض أن أمحو بجرة

قلم الأفعال الطائشة لأكلة لحوم البشر الذين يستبيحون أجسامنا مثلما ينهمون قصعة طعام.

كانت المرأة المسؤولة تكاد تكون جامدة في جلستها. تمتص كل ما كانت تسمعه. فضلها الذي لا يقدر بثمن يكمن في توفير الزمن الكافي لسماع بقية القصة المقززة لقائلة:

– لا يمكن أن يتحقق التسامح إلا إذا طلبه مجانين الله من الشعب كله أمام الملأ. ودون أن ننسى الأسلاف وجميع الأحجار الذين منحوهم الجنسية.

كنت كمن طلب القمر في زمن العواصف المدمرة.

* * *

ولكي تعزز هذه الصداقة الناشئة دست المرأة المسؤولة في يدي نقود سيارة الأجرة. وافترقنا على صمت مبهم. أطالب أنا بتعرية حرفية للظروف.

وتقترح هي نظرة معينة لما حدث.

إن ظهور هذه المرأة في مجريات التحقيق يمثل منعرجا جوهريا في حياتي. فكيف سيكون يوم الغد؟ ولأكون صريحة لا أعلم إن كنت سأشتكي أم سأهنئ نفسي. في كل حصة كان حضورها يأسرني، إنها تسحرني. هل كتب علي أن أتلقي صواعق من يدعون تمثيل الله، أم أنا بكل بساطة بدعة شيطانية في شكل امرأة ؟ إن العناية الإلهية لم تهبني إلا قليلا من الراحة عند توزيع القرابين. إنه خطاب صوفي أغلفه في أحكام غير عقلانية مستمد بدون روية لا أعلم من أين أو كيف. تلك مشكلة أخرى ليس في طاقتي حلها، في جولاتي المسموح بها، في هذه السراديب العديمة الشكل من حياتي الكئيبة.

"لقد اعتديت على القانون" قبل أن ألتحق بالمركز، وذلك بأن سلكت أزقة أخرى في هذا التجمع الحضري المرصوف بالشهوات الظمأى.

مكان يرن بفرح لا شعوري لدى دهماء البشر الذين لا مستقبل مضمون لهم. تركت هذه المرة العنان لأفكاري وأنا أسير دون هدف ظاهر. لقد أعطى علاجي الصدمي ضد الإدمان نتائج جلية،

فقلصت بشكل كبير استهلاكي للأقراص وذلك لأنني كنت مراقبة عن كثب.

يجب أن أعلمكم بأنني لم أتخلص في هذا العلاج الطويل المؤلم من الرغبة في بعض الإغراءات الجبرية والفجائية، لكنني كنت أقاومها.

إن فعل التلبس ينزع عني حالا الفسحة التي أتمتع بها. لقد وضعوني في المركز من أجل هذا أيضا. فكانت رئيسة المركز تسهر من بعد على ألاّ أسقط في رغبات الشهوات القوية التي تلولب أعصابي دوريا. كان للنقاهة الإجبارية ثمن على غرار كل ما حصل لي، وكنت بلا شك المسؤولة الأساسية عنها. الفطام هو أسوأ شيء يمكن أن يحصل لمدمن مهلوسات مثل حالتي.

وبخضوعي المسبق لهذا العقد الصعب والصحي في الآن نفسه استطّعت أن أتخلص من حي المسجونين، لقد قدرت العدالة أنه من الأفضل إبعادي عن السجن، وهي كيفية تضمن اندماجي وتجنيبي من اللقاءات المريبة التي يمكن أن تهيئها مدرسة إعادة التربية. لقد كان الاختيار نبيها، و كنت

أنا محظوظة نسبيا في تسيير محاكمتي حتى مع إدانة خطيرة على كاهلي. وكان في استطاعتي تسيير اتهامي في موت صفية. فأنا أعتبر أن تمردي المغالي الذي ولد في مفترقات العار، وفي الطرقات غير الملائمة لمدينة مكتظة بالأرواح المتعبة قد تحول إلى سلاح معركة رائع. إنني لا أتمسك بمُثُل عليا معينة وإنما أحاول أن أفهم سلسلة من ردود الأفعال – ردود أفعالي – الحميمية. لقد كنت مستسلمة لتمزق حاد، وأتألم لعدم قدرتي على فك الدلالات المناسبة لهذه المؤشرات التي تتكدس علي و كأنها ثقل حكم قضائي.

صرخت أمام المرأة المسؤولة التي أظهرت اهتماما كبيرا لمعرفة بقية المأساة قائلة:

– كيف أحدد بوسائلي الفكرية الضعيفة النسبة التي تعود لكل واحدة منّا في الفترة البائسة التي كنّا نعيشها !

ما هو مهم أكيد، هو أنني كنت متيقنة من عدم الخضوع لوحشية دعاة مملكة الظلام. سوف أتصدى لهم وراء القضبان التي تنتظرني، ولأسرتهم الملوثة،

ولريائهم الديني الموبوء. وسوف أتصدى لنظرياتهم الهمجية، وعقائدهم المنحرفة، ولمتفجراتهم الناسفة لكل حوار.

إن المنفية من الهوية التي هي أنا، لن تتعرض بعد الآن للكوابيس التي رافقتني منذ فراري المميت من جبال الإرهابيين. ومن الآن فصاعدا سوف أرفض جميع أفكار المصالحة التي تراود عقلي، وسوف أطرد كل وصاية على أحكامي الحرة. لقد سبق لي أيضا أن دفعت ثمنا غاليا لعبوري إلى مستنكفي الضمائر الذين لا يكلفون أنفسهم مشقة ابتلال ملابسهم إلا بعدما يتأكدون من ابتعادهم التام عن الطوفان. وبصورة يائسة، فإنني لم أجد شطري المعارض إلاّ بعد سقوطي الإنساني والمادي، وبعدما بلوغي سن الرشد. سأبحث عن وراثة لمعركتي ضد النسيان.

* * *

وجدت جحري مثلما تركته. لقد اختفت رائحة المرأة الميتة عشية الأمس. واحتفت النساء المندوبات للنظافة بعزائهن السرمدي، وذلك بفتح الستائر الرمادية الثقيلة وفتح الأبواب والشبابيك لتهوية ممرات العنابر وطرد الأرواح المفترضة التي تكون قد حاولت البقاء في ذلك السرير الذي طلي بالأبيض على عجل. وستأتي المقيمة القادمة من وسط معدم لا محالة. إنها المزية الوحيدة التي نمنحها هنا إلى الأفراد ذوي الأصول المتواضعة.

من البين إذا ألاّ أحزن إلاّ عرضا على بؤس الآخرين. إن شقائي يكفيني ويزيد عن ذلك. ونصيبي الوافر من الحرمان قد زادني رفعة في هذا الميدان.

لذلك لم أكن حزينة ولا مستبشرة لبقائي منفردة. فقد كنت متعودة على ذلك.

لقد اتفقت مع المرحومة خفية على ألاّ نفشي ما تبقى لدينا من حميمية. وقد مكنتنا محادثاتنا النادرة من قياس مدى أعطابنا وراء أسوار هذا العالم المتحضر الذي تعد فيه الإهانة أقل ضرر يصيب الإنسان.

لم تكن ولادتها فأل سعد، ولم يكن حتى من الضروري المغالاة في حدودها الظاهرة. كما لم أكن من جهتي مدللة نؤوم الضحى، غير أن هذا لم يعد يحزنني. فقد دفعت ثمنا غاليا للإقصاء الذي تعرضت إليه. وجعلني احتقار الآخرين أقتنع بانطوائي. ولم تؤنبني النفوس الخيرة بسبب إصراري على عزلتي الزائدة.

لقد أدركت خاصة ضرورة أن أتغلب بنفسي على حجر عثرة الرأي المسبق. إن المزية المبهمة التي أتمتع بها هذه الأيام هي التي تساعدني جيدا على صياغة دفاعي ضد الأحكام القاطعة والشكوك البالية. والأحداث الشائنة التي وسمت حياتي الكئيبة قد أحصيتها واحدة واحدة. وسوف أعبر الأقدار التي كتبت علي مثلما يعبرها من لا تطاله المسؤولية. الأقدار التي تفضلت علي أخيرا بوضع امرأة مسؤولة حساسة لشكوتي. إنها تمثل بالنسبة لي، وبكيفية ما، مهندس آخر دقيقة الذي يحسن إعادة تركيب الأسباب التي دفعتني لارتكاب ما لا يمكن إصلاحه في نظر القانون ضمن سياقها الطبيعي.

كان يمنع علي بالتالي أن أسلك الطريق الخاطئ في بقية التحقيق. فالزمن معدود علي. شغلي الشاغل هو أن أكسب ودّ المرأة المسؤولة، وأضمها إلى قضيتي، وأن أجدول قضيتي في سياقها الحقيقي. ولا يجب أن تثنيني النشوة التافهة لفتوحات المحكوم عليه عن اختياري الأول في الدفاع عن شرفي، أو ما تبقى منه.

* * *

أيقظتني في ساعة مبكرة جدا المقيمة المواجهة لي، وهي امرأة بدينة مقوسة الحاجبين بوضوح، قصيرة الرقبة، أنفها أفطس. غادرت على عجل سريري لكي لا أتعرض لصورة المرأة العجوز ومشهدها المشؤوم المؤذي الذي يسوء موظف المشرحة. إرتديت بسرعة الجبة الوحيدة "اللائقة" التي أمتلكها. وكان حماني هو الذي اشتراها لي من سوق شعبي دوري تعود أن يتجول فيه للبحث عن الألعاب الرخيصة الثمن التي تزين يوميات "درّة"

فلقد أحب ابنتي كما لم يحبها أحد آخر. وعندما كان يحملها بين يديه، كانت "درّة" تشكره بالإكثار من الضحك. كان يربطهما نوع من أنواع عقود المرح. لم يكن يتنفس إلا من أجلها. وعلى الرغم من وسائله المتواضعة فقد كرس حياته لخدمتها. لقد كانت سبب وجوده في عالمنا المهمش.

اليوم السابع

استجبت ذلك اليوم لحاجة داخلية، ودخلت بسرعة في جزئيات اعترافاتي. وجعلت من واجبي التعجيل بالاعترافات. يجب الاعتراف بالحنان الأخوي الذي نشأ بيني وبين المرأة المسؤولة، والذي سهل لي المهمة كثيرا. فقد أصبحت كاتمة أسراري التي لا يمكن تجاوزها، والمتسامحة مع استطراداتي المتكررة. وزعت المه ام المشابهة على مساعديها التابعين لامرتها، وتكلفت بالمتابعة الدقيقة للملف، ولم تقبل تحت أي ظرف مهما كان أن يشوش عليها في مكتبها. ولم يعد للأسبقيات أي سبب للوجود.

كان خفقان خفي يشير إلي بأن الأصعب لم يعد أمامي وإنما أصبح بالفعل ورائي. وكنت على استعداد تام لأقدم نفسي للعدالة بسرعة بعد استنطاق اليوم السابع. لقد رأيت في الرقم سبعة علامة فأل.

إنه مشبك الدورة.

وبدت المرأة المسؤولة بدورها أشد تأثرا برؤيتي. هل انتهى إصراري على جعلها تعجب

بقراءتي للأحداث ؟ وهل ستراجع العدالة أوراقها لكي تنطق بحكمها انطلاقا من اعترافات أقل تقريبية؟ كنت أتحرق شوقا لأعرف البقية.

خف الارتعاش الذي اعترى كياني بمجرد عبوري منطقة الشك، و ذلك بعدما ضمتني المرأة المسؤولة أمام الجميع. وأظهرت لي نوعا من الدعم الذي أبطل الفروق الاجتماعية التي بيننا. فقد كانت ذات حضور نادر. وفي كل الحالات كان حضورها في المكتب وحده كافيا لجعل معركتي تتقدم ضد المخططين لعقابي، المدمرين لمستقبلي. باشرت الحديث عن مسار حياتي الطويل حتى قبل أن تفتح فمها وتأذن لي بذلك. فتقيأت كل ما كان في أحشائي، وكل ما كان يغص في حلقي. فكانت موافقة تماما على ذلك النهج. الواقع إنه كان اختيارا فرديا أدمجته استثنائيا في تقاليد المصلحة. ولم يبق أمامي حينئذ أي مبرر للتردد بعدم الدخول في الجزئيات من أجل أن أشرح عالم الظلمات وعدم التسامح الذي عشت في وسطه. فقد كانت مأساتي تهمها كثيرا. لقد اخترقت معظم أسراري في أقل من

أسبوع. وكنت معجبة سريا بمهارتها في قيادة العمليات. فالتكثيف كان منتظما. لقد استطعت أن أغوص فيه إلى أعماق ذاتي.

أما ما يتعلق بي فإنني لا أطلب أكثر من محاكمة عادلة دون غضب أو أحكام مسبقة. فقد يكون للقانون قلب رحيم. ويجب عليه أن يكون حاملاً لأسباب العدل.

* * *

شرعت في بقية الحديث عن البداية بدقة الصائغ؛ أي إلى حد الفاصلة تقريبا متحفزة بالمنعرج المريح للاستنطاق.

– لقد كان للجواهر تأثير عجيب علي. تجعلني أجراسها أعاني أفظع العذاب. كنت أحسب معادلها بحبوب الهلوسة. لا أعرف قوانين أخرى غير قوانين المخدرات: لقد كانت تمارس على إرادتي سلطة مطلقة. وكنت مفرطة فيها إلى أصغر مسام بداخلي. وأتعذب عذابا شديدا. فلم أكن أشاهد

صديقتي وإنما كنت أشاهد الأرباح المدهشة التي يمكنني أن أجنيها من هذا الذهب الذي يزين رقبتها ويديها. كان لعابي يسيل أمام هذا النوع من الواجهة الجذابة. يجب أن أتحصل على هذه الجواهر لشراء جرعتي، إنها ضرورية لأُسكِّنَ إغراءاتي الشيطانية. كنت مصابة بحمة لا تقاوم. كنت أتخبط في عدم قدرتي على ذاتي. العقارات النفسية وحدها هي التي تستطيع أن تستأصلني من أعماق ناري. تلك البدائل وحدها هي التي في استطاعتها أن تخفف من قلقي وتحملني إلى عالم افتراضي حقيقي لكنه أقل ضغطا من الواقع المر.

داعي الجريمة قرصٌ يا سيدتي ! نعم، قرص دقيق نبتلعه لنقطع الأوصال مع الحياة اليومية، ولنتخلى عن أحداثها.

في هذه الأوقات تولدت في رأسي فكرة خنقها بالمنديل الذي أعطته لي قبل أشهر من ذلك.

لم تكن المرأة المسؤولة قد تجاوبت معي قبل ذلك إلاّ بالآهات الطويلة والاستماع إلى الحوار المنفرد المتحمس، لكنها أسدلت عينيها هذه المرة،

وأدارت لي ظهرها، وأجهشت في البكاء. كانت دموعها الحارة تنهمر كالأوتاد المتوالية أمام عدّاء للمسافات الطويلة. لقد انتصرت العاطفة على البذلة. غمرها انطباع دقيق من الوصف. مع هذا، فإن ضعفها العام قد فاجأني. لقد تجاوزت الأعراف الجارية. إنها تلهث. استرجعت أنفاسها بعد مدة طويلة، ومسحت عينيها وقالت لي بصوت مثقل بالأنين: - نستأنف استنطاقنا يوم السبت القادم صباحا. إن يوم الجمعة يوم صلاة.

وقبل أن تغادرني مستعجلة توقفت ورشقتني بعبارة:

- من الأفضل أن نحتفظ بهذه المحادثة السرية بيننا.

وتابعت قائلة بجدية:

- أتمنى ألاّ تعقدي مهمتي بالنسبة لبقية التقرير. يمكنك الانصراف الآن.

فجأة، أحسست مجددا بثقل مقلق. إن النبرة القوية التي خاطبتني بها قد أزعجتني إلى أبعد الحدود. المؤكد أن هذه الملاحظة الأخيرة تعد

تحذيرا أكثر منها تبادلا للأسرار. لقد كنت أكثر اضطرابا من اليوم الأول. هل هو انهيار آخر لحلم كنت قد بنيته يوم أمس ؟ كنت وحيدة في ليلة ذلك المركز القاتم المليء بالأحداث الصاخبة. وهو مركز جدير بأن يقوض حتى دون صخب جميع الآمال.

هل تخفي أسلحتها للأسئلة المقبلة ؟ هل كنت أخدعها في مجرى هذا السرد ؟

أخذت أتأسف على حياتي البوهيمية المهتزة تاركة نفسي لمصير لا رغبة كبيرة لي فيه وأنا جالسة على مقعد من الخشب في قاعة ذات سقف مرتفع. إن المهمشين الذين أختلط بهم يسخرون سخرية تامة من قوانين الحياة. ورفض الآخرين لهم لا أثر له عليهم كبير. وهم في رأيي على صواب.

* * *

لم أستمع للشرطي الذي أمرني بمغادرة المكان أثناء ركوبي موجة الجنوح، وانفصالي عن العالم الذي يحيط بي. أرعد ساخرا وساخطا. كان قد أنهى

عهدته ولا ينتظر غيري ليلتحق بمسكن العزاب المقابل، ذلك الفضاء الآخر للآمال المحطمة.

راودني ما يشبه الحدس أن المرأة المسؤولة ستخل بالتزاماتها معي في هذا المسعى عن الحقيقة.

إن المستقبل لا يتنبأ بأي شيء مطمئن لقضيتي. هل أعود إلى نقطة الانطلاق ؟ وهل أمنيتي في بلوغ غاية قضيتي قد أصيبت بطعنة قاتلة؟ تتزاحم الصور المصدومة في رأسي وتنهار وتتحلل وتتفكك.

عندما خرجت من محافظة الشرطة كنت عازفة عن كل شيء. واسترد حلقي مرارته. وصار لساني ثقيلا. التحقت بصعوبة كبيرة بالمركز حيث كنت أقيم بصفة استثنائية. إنه زمن جمدوه بصفة نهائية على مدى معاناة حرماني.

دفعت الباب الصغير المستدير المثبت على السارية الضخمة المحاطة بالأسلاك الشائكة، تتقاذفني الأسئلة المنفرة. تمت قريب ثاقب الذهن لمقيمة بالمركز هو الذي أهدى عشر حزم من الأسلاك الشائكة ليضمن راحة الأفراد القاطنين من العجائز والشيوخ. كانت النساء اللواتي أصادفهن في

فناء الملجأ يوحين بغياب تام عن عالمهن، متقوقعات على عالم أسرارهن من طلوع الشمس إلى غيابها.

يكتظ عالمهن بأشباح لا يراها ولا يلمسها غيرهن. وعبر شعائرهن المتمثلة في جولاتهن المستعادة كن يملأن الأماكن والأزمنة الفارغة المخصصة لهن بمفردهن. كن جميعا يعشن محرومات من أشياء لا حصر لها، غير أن الحب كان أهمها. و مثل العادة كان الجو فإن الجو كان رتيبا رتابة قاتلة ومعتما عتمة أبدية. يقتصر تبادل المقيمات على أبسط العبارات كالصم البكم الذين فقدوا استعمال الكلمات. وكل تبادل كلامي يجهض في بئر من الذكريات. علامات ملموسة على بؤسهن. ينظرن جميعا في اتجاه الجدار المتورم بالرطوبة. وهو نفس الجدار الذي يفصل السجن عن الملجأ. وعلى الرغم من كوني الشابة الوحيدة بينهن بحسب الدفتر العائلي فإن ذلك لم يغير شيئا من حياتهن. لقد فقدن حس المقارنة في بزاتهن التي تقود خطواتهن الأخيرة نحو مثواهن الأخير. لقد وهبن تفاؤلهن البالي إلى مسؤولة المركز الذي يؤويهن.

لا يعنيهن في شيء الغليان الذي يعم الأحياء المجاورة منذ الساعات الأولى للنهار. يقلن من وقت لآخر بأنهن قلقات على حالاتهن الصحية، ولا شيء أكثر من ذلك. ولا يتذمرن أبدا من المنغصات الصوتية المنبعثة من قاعة الأفراح والمشيدة قبالة مقر موتهن على أرض محصورة كانت من قبل ساحة ألعاب. إنها قاعة لأحد وجهاء المدينة. وهو رئيس بلدية سابق انكب اليوم على النشاطات الترفيهية والسياحية. و لا تعنيهن أيضا روائح الصرف الصحي الكريهة المسدودة بفضلات البقول المكدسة كأنها مطاحن على أركان الطرقات المتاخمة لهن. لقد ضيعن حاسة الشم في تقابلهن.

وكأنما فوهة بركان أفرغت أحشاؤه هي الوحيدة التي توحدهن باستمرار، لما لا تحمد عقباه. إنهن يشبهن أسمال الأقدار. أسمال جوية.

ومن فرط يقظة مستخدمي المركز الذين يظهرون دائما بوجوه سيئة الحلاقة كانوا ينادونهن "الحاجة" وذلك لكي لا يضطروا للتمييز بينهن. لا يمكن التشكيك في إهمالهم السائد في هذا العالم، الذي

يعد الحديث فيه عن قبر الغد في حد ذاته فضيلة نادرة. إن المقابر في الرؤوس قبل أن تكون فضاء شعائريا.

* * *

كنت مستعجلة لأتسلق الدرجات التي تفصلني عن السجن، وكنت أجتر بضوضاءِ ضياعَ بصيرتي أمام الحجج التي يجب علي بناؤها. كنت أعاتب نفسي لارتكاب المحرمات عبر السقوط في الهاوية، مستخلصة أنني لا أصلح لأي شيء. طلبت مني المرأة البدينة التي استخلفت جارتي المفقودة بصوت لا يكاد يسمع إن كنت قد جئت "بالشمّة". أخبرتني منذ الأوقات الأولى لقدومها إلى عقر هذه الحثالة الشعبية بأنني الدعم الوحيد الذي بقي لديها. حاولت الامتناع عن مبادلتها الكلام دون جدوى. وأمام تقطيب وجهي فهمت بأنني لست متفتحة لعقد محادثة معها. إن رائحة فمها لا تشعني على هذا إطلاقا. طلبت مني مرة أو مرتين لأساعدها على وضع

مزهرية الغرفة تحت عجزها العريض المتضرر قطعا من النفاس المتسلسل. يجب القول أن بيوت الخلاء الجماعية غير متيسرة ليلا.

وأقل منها نهارا حيث الاستعمال على أشده. فالوسائل الأولية مفقودة بسبب عدم وجود الميزانية.

يتصدق المؤمنون بالمعونات المادية لإرضاء ضمائرهم بسهولة ولكنهم لا يجدون أنفسهم مضطرين أبدا لإصلاح حنفيات مركز الاستقبال الذي يقولون عنه أنه من اختصاص الدولة.

يجب الاعتراف حول هذا الفصل وبالنظر إلى الأكل المقدم إلينا، بأن المديرة في سباقها الطويل الذي لا نهاية له تعرف جيدا كيف تدبر أمر مؤسستها. إنها تبدت التزلف لأغنياء المدينة عند الضرورة وتشكر دون حساب المحسنين الذين لديهم بعض الاعتراضات. لقد عجنت من نفس خميرتهم وذلك لكونها تعرف معرفة جيدة نقاط الضعف لدى أولئك الممتلئين، وتعرف التقى المتكرر الذي يغلف مرسلاتهم الدورية من السلع. إن وسيلتها الاغرائية تعطي نتائج مقنعة. فهي تستمع بإمعان للأغنياء

الجدد. والدولة لا تتدخل إلا لتكملة النفقات: حيث تدفع أجور العمال، وتضع الكشوف النهائية للوزارات الوصية.

"غدا يوم الجمعة، يوم صلاة". لم أوقف البحث عن النصيحة، وعن التخفيف من المفاهيم في يوم الراحة المهنية هذا الذي لا يعطي الموت فيه أي مهلة بداخل مركز الاستقبال. بالفعل، فقد سجلت هذه المؤسسة الخيرية وفاة أخرى فجر هذا اليوم. فاجأ مفرق الجماعات عجوزا مسنة مصابة بداء السكري أثناء الصلاة. كانت تتوسل إلى الله على طرف ردائها الذي تستخدمه زربية صلاة ألاّ ينساها ولدها البكر الذي يقيم بمنزل الوالد، وأن يأتي ليأخذها من هذا المكان. وجدوها مشققة الشفتين وباردة مثل قطعة ثلج. كان العيد يقترب سريعا وكانت تأمل أن تكون لها حصة فيه. لقد اشتاقت لأحفادها شوقا كبيرا، واشتاقت لمرافقتهم إلى المدرسة وشراء قطع الحلوى لهم خفية لكي لا تعارض كنتها وهي أم محضنة يسكنها نزق مرضي. لن تتحقق الرغبة. لقد تقرر دفنها في نفس اليوم بمربع المجهولات. شواهد

القبور البيانية ليست من مهام المركز. سوف يدعك قبرها كما تدعك أرض لا أهمية لها. بعدم اكتراث لا نظير له. ولن يكون لها وجه، ولا اسم، ولا قصة.

وكأنها ما ولدت يوما من الأيام ! ومع ذلك سيكون لها في اليوم الآخر شرف الموت يوم الجمعة.

اليـــوم الثامن

كان الطريق المؤدي إلى المحافظة الشرطة هذا اليوم مزدحما بالباعة الجوالين الذين يرجح أن يكونوا غرباء عن المدينة، وباللصوص النشالين الذين أعيد إدراجهم في دورة الجنح العادية بعد إصدار العفو المتكرر عنهم، يتحركون في كل مكان مثل المتظاهرين الذين لا زعيم لهم. ثمت رجل يتوسل العابرين أن يساعدوه على دفع دراجته المعطوبة، عمال البلدية يعملون على استئصال جذع شجرة كبيرة دون لحاء قتلت بسبب النشادر الذكوري الذي كان يسقيها. مقاومتها على الصمود لم تدم زمنا طويلا. فهي تزيد عن مائة سنة بالنظر إلى طول جذورها. إنه حماني "الأثرم"، المجاهد الذي لا أوراق له، هو الذي علمني كيفية احتساب أعمار الأشجار. والحفرة الضخمة سوف تملأ بالتراب في انتظار الشتاء المقبل. يشبه الشباب المسرعون في كل الاتجاهات سرب زنابير ضاعت منهم شرنقتهم. كان بعض المتغطرسين أو المستهزئين يستديرون

عند مروري لله من تسريحة شعري. لم أكن أهتم بسماجتهم.

وكان التدافع في جوار السجن من الجهة الأخرى على أشده. هناك مئات من عيون الفضوليين الذين يتابعون على الرصيف المقابل الحراس الذين لا يسأمون من غربلة الطرود، غير معنيين بالغوغاء المحيطة بهم ومندمجين في لعبتهم المفضلة: وهي استلام القصاصات الورقية الصغيرة المسلمة إليهم خلسة من قبل الأقارب للحبيب الجانح. إن هذه اللفتة تستعمل من أجل تليين تقاليد المستعملين للأحزمة ذات العشر ثقوب. وهي أداة لا يشبهها شيء آخر لرفع مستوى مطالب المسجونين. توقفت برهة من الزمن لأشاهد مباشرة مضاربات الخداع. إنه يوم تسليم القفف إلى المسجونين. وكل قريب من أقرباء المساجين يتمنى أن يكون الأول عند فتح كوّات التزود هذه التي تعيد إليه ربط العلاقات الدموية مرة كل عشرة أيام. إن السجن يقوي القلوب ويخفف المأساة في هذه العلاقة الموقوفة عن بعد، والتي يتصدر الحب فيها الصفوف

الأولى على عدم عقلانيته، كالجنحة الثابتة. يفصل شريط بين الرجال الحاملين للقفف والنساء. لأنه لا يسمح في هذه الأماكن بالاختلاط إلاّ في الوقوف المتوازي. كان الرذاذ في ذلك اليوم يسقط دون توقف. وكانت القاذورات المنجرفة بسبب الموجات الهزيلة للماء تتكدس أمام فوهات الصرف المسدودة منذ أعوام.

لكن ما من أحد يوليها انتباهه حقيقة. لم يكن النتن مزعجا أبدا في وسط هذه الجحافل المكونة من الصهارة البشرية المتنافرة، التي لا انسجام فيها ولا تعاطف.

* * *

أستاء من مجانبة جدار السجن، غير أنه لا اختيارات أخرى لدي للنزهة. إن هذا المسار قد فرضه علي المستنطقون. وهو يذكرني بما ينتظرني في الجهة الأخرى من الحاجز الذي يقفل الدهليز

الضخم للمدخل، على محيط معتبر. تتصرف سلطات السجن على هذا النحو لتؤثر على الأذهان.

إنها رغبات صغيرة للمشرع يسبق بها المشهد الخلفي. إن السجن شيء احتفائي لمصادرة حرية الجانح لبعض الوقت أو بصفة دائمة. تجعلني هذه العلاقة أتألم، لأنها تدفعني إلى تصور نفسي منذ الآن وراء قضبان هذا البناء الفظيع الرمادي المدجج بالمراقب والرهائن المتعددة. استسلمت لأفكاري السوداوية، وحددت بنفسي العقوبة، حاسبة بالفصول والأيام المدة المحتملة لسجني. وبالطبع، فإن توقيفي ملون بالإطار الأخضر الذي يزن الحركات المعادة داخل قوس الحياة حيث الصديق الوحيد الذي يمكن أن نعتمد عليه هو السأم. قرنت إسمي بأسماء أولئك المسجونين الذين ينتظرون برعشة يوم زيارتهم لكي أخفف من الضيق العاطفي الذي أتخبط فيه، غير أنني استدركت بسرعة استبعاد ذلك الحق، وذلك كما تكونوا قد خمنتم لأن ما من أحد سوف يأتي لزيارتي. فقد قضى الإرهابيون على عائلتي، ولكنني أقول لكم الحقيقة، إن غياب الأقارب لا يشغلني كثيرا

في هذه الوضعية المحزنة؛ بل إن حضور الأقارب هو الذي كان سيزعجني. ماذا كان بوسعي أن أقول لقريب متعاطف معي بالواجب العائلي، عند مجيئه إلى السجن لزيارتي ؟ أقول له إنني خنقت ولية نعمتي في ماخور ؟

أخذت أستظهر دون تمهيد روزنامة الأعياد الوطنية والدينية لكي أمنح نفسي تخفيضات العقوبة.

كنت منفصلة عن جسدي تماما، .أواسي نفسي بهذا الأفق، حتى إن كنت بعد ذلك سأكابد هذه الأفكار المؤلمة التي تعمل عمل المطرقة الكهربائية في رأسي: إن وجودي في حد ذاته كان وجودا فائضا.

كنت لا أزال أقلب تلك الصور العنيفة عندما رأيت على مستوى كتفي أحد الشرطيين اللذين استمعا إلي في اليوم الأول. وكنت على بعد بضع خطوات من مدخل محافظة الشرطة. كان هنا لمراقبة تحركاتي. حضوره أحيا وحدتي التي لا نهاية لها. كنت مشدودة من كل مكان، و مشتركة دائمة في الاستدعاء.

وصلت إلى المحافظة يوم السبت كما كان متفقا، وكنت متضايقة أكثر من أي وقت مضى.

ضجة كبيرة ملتبسة تجري بضواحي المكاتب. ناموسية طويلة تتدلى من الأعلى للأسفل كأنها ثعبان يتضور جوعا كانت تقبض على سفود من الذباب يؤدي رقصته الجنونية. إنه يوم استقبال المدعين، الذين لهم حق الشكوى في يومين: بداية الأسبوع ونهايته، تعليمة صارمة مفروضة من السلطة المركزية.

هناك مجموعة من الشباب تهز سيقانها في كل اتجاه وتحدق في عنقي. تقتل الوقت كما يقتلها، دون اكتراث كان أحدهم متمددا على المقعد المقابل، انفجر ضاحكا ضحكة شيطانية لرؤيتي. وقلده الجميع. تجنبتهم قليلا. قد أكون ذكرتهم بأحد المهرجين، صورة ساخرة لكائن متعفن بمعتقدات واهية ومبادئ رثة. كنت أكظم بعنف نفاد صبري.

كان يظهر على المرأة المسؤولة التي سبقتني إلى المكتب أنها قطعت كل صلة بمحيطها المباشر.

كانت تسحق شالها بحزن رغم إرادتها. وجهها شاحب حزين، حزن تحسدها عليه القبور القديمة بمقبرة في فلاة. غيابها يجعلني أتجمد في هذا المكتب الذي تسبح فيه روائح المنظفات. تتمسك بحلقك بمجرد أن تدخل لتذكرك بضآلة نفسك.

بدت مستجوبتي متذمرة أكثر من العادة. جلست على مقعد مستندة على الجدار المقشر لكي أحافظ على جسدي المترنح. كانت تلك طريقتي الصبيانية بالطبع لخلق التبادل الكلامي. كنت أتصبب عرقا.

الإبهام يحيط بي، ولم يتأخر في الحضور.

ألصقت ظهرها بمسند كرسيها الدوار، ورمتني بسؤال أسرع من البرق.

– ماذا تنوين فعله لتنفذي بجلدك ؟

وتابعت قائلة دون تأخير:

– لا أحد يستطيع أن يصف الأوقات الأخيرة التي قضيتها مع "المرحومة" أحسن منك.

بدأ الاستنطاق بوتيرة سريعة ورسمية ثم تلته تنهيدة طويلة. الظاهر أنني أفسدت حساباتها. إن الرغبات المكبوتة تطرح مشكلة لديها.

أضافت وهي تمخط أنفها بضجة قائلة:

- لقد اتفقنا على أن تقصي علي كل شيء. حدثيني إذن !

فاجأتني بهذا التحذير أو هذه الملاحظة المغلفة حقيقة بأمر تنفيذي. ولم تكن لديها نفس الاستعدادات السابقة. كان رصيدي يتناقص في نظرها. أحسست أن اهتمامها بي أخذ ينخفض. لاحظت هذا الانكماش من خلال الحركات والكلمات والنظرات. وأصبحت القيود الإدارية هي القاعدة. لم يعد هناك أدنى التباس في هذا. هل اقتنعت برأي زميليها اللذين حثاها على التعجيل بإقفال الفصل المتعلق بي ؟ وهل العناية الخاصة المعبر عنها نحوي في اليوم الأول مرتبطة بمجرد خطأ في التقدير ؟ اللهم إلاّ إذا كان البحث المفرط عن الجزئيات لا يعبر إلاّ عن رغبة في التفاؤل، وأن هذه القضية سوف تثبتها بصفة دائمة في الرتبة التي تقلدتها حديثا. كنت أحترق داخليا بسبب عدم القدرة على إيجاد تفسيرات كافية لهذا التحول الذي أكابده. استرجعت الوظيفة حقوقها على طبيعة المرأة. تغلبت القبعة.

لقد كانت عملية منحي عدة أيام طُعما لاصطيادي، مسرحية معدة بإحكام، استنطاق إيقاعي. لم أفتأ أمرر راحة يدي على وجهي. كان هناك طنين في رأسي. لقد كنت متورطة إلى الأذنين. إنها الضربة القاضية. إن أيامي الصعبة ما زالت طويلة.

* * *

كنت مشتتة بين رغبة الاعتقاد في الطيبة الإنسانية، وضرورة العودة إلى القانون الذي يحكم العلاقات الاجتماعية. أخذت أشرح المهلة الوجيزة التي منحت لي " من أجل إظهار الحقيقة ".

كانت أزمة حادة تلهب معدتي. حاولت مرارا أن أخفي ألمي عن طريق ضحكة اصطناعية. ولم يتغير مني شيء. كنت عرضة لتشنجات حادة.

بقيت مسترخية على المقعد و رياح عاصفة تحاصر غشاءي أذنيّ، الم حاد يعصف بأمعائي. لم أعد أقوى على سرد البقية، اختنق صوتي، والشعلة الداخلية التي كنت أظن أنها لا تخمد قد تباعدت حتى

لا أقول انعدمت تماما. لقد أجهضت محاولتي. وصودرت مني حكايتي.

لقد كنت واثقة من نفسي ثقة في غير محلها.

سِدادة فلين مطحونة في زبد محيط من الضياع.

في نهاية الأمر لم يكن إقدامي الأول سوى سحابة باهتة من الثورة. زوبعة صيفية. كنت فعلا مشوشة في معترك من النصوص ومن الرفض الذي يتعذر حله. يشبه الأمل الكاذب الذي تعلقت به في حالتي هذه آخر أمنية لمحكوم عليه بالإعدام.

الفوضى الذهنية تغمرني. لم يعد بالإمكان أن أتخلص مهما حدث. كنت أشبه أي شيء ما عدا أن أكون مخلوقا بشريا يتوفر على قدرة التمييز.

ملامحي مشوهة من شدة المغص. كنت صالحة للمطهر.

إختزلت المرأة المسؤولة اللقاء بجو كأنه ليلة جنائزية. دونت بعصبية ما لا أعلم في كناشها .

حملت حقيبة يدّها، وتخلت عني دون أن تفتح فكيها، مفرقعة حذاءها ذا العقبين القصيرين. ولم تنبس ببنت شفة. لم أكن سهلة الترويض. كما لم أكن

شجاعة أكثر من الآخرين أيضا. دوى صوت من خارج المكتب لينزعني من مساحة أوهامي الصغيرة. توقف الرجل الضخم المستدير كالسيجار بجانب المكتب أمرني أن أغادر المكان.

حذرني عند خروجي من المحافظة قائلا:

– لا تحاولي الوقوع في الخطأ، سوف نقبض عليك.

أجبته:

– لا تخش شيئا، أعرف رسم عقوبة الفرار.

خرجت هكذا بكل تلقائية. كانت أذناه المنتزعتان تشبهان الصحون الهوائية. لقد كان يثق بي ويغمرني بنصائح رجال الشرطة ضمن هذه الفسحة التي يسمح بها القانون، من وقت لآخر.

* * *

كانت الساعة قد تجاوزت الخامسة مساء. تملكتني رغبة جامحة في الاختلاط بالجماهير الزاخرة. وافق الشرطي الذي يراقبني بصفة دائمة

بدوره ضمنيا على أن أستنشق نسمات غروب المدينة .

بقيت جالسة طويلا وبلطف على المقعد العمومي قريبا من المسلة ذات الجمال الذاوي والتي تجتذب دائما الأضواء المختلجة للمصورين المتنقلين. لا أحد منهم تقدم مني لكي يطلب مني صورة. كانت هيئتي الخارجية كافية لصدهم. وكانوا يتجنبون النظر إلي ولا ألومهم على ذلك في الواقع، كانوا دون شك على صواب عندما لم يعيروني أدنى أهمية. ماذا يمكنهم أن يستفيدوا من شخص لا يملك حتى هوية خاصة به ؟ جزئية موجهة لمكان غير محدد. امرأة بشعة من كل مكان. وليس احترام المظاهر من شأني منذ مدة طويلة.

من موقعي الخلفي نسبيا في ممر الراجلين القذر، كنت أتأمل عجلات النقل المتواصلة للشباب المؤهلين لحضارة عدم اليقين الضوئي في الطرقات المطلقة من الإسفلت. كان أحدهم يلصق بأذنه مسجلة يحيط بها المطاط. ويتلذذ بأنغام قديمة كان والدي من المعجبين بها. استبعدت عند رؤيته بخطى حثيثة كل

ماضـي كفتاة ريفية. أمسيت أنتمي بصفة نهائية إلى العالم الموازي للموبوئين الذين لا ينظر إليهم الأفراد الطبيعيون إلاّ نظرة بعيدة. ماذا فعلت لأستحق كل هذا العقاب؟

كانت بقية استنطاقي تبدو محزنة. لا أنتظر فيها معونة من أي إنسان. توجهت صوب طريق ملجأ الإقامة. خبت بداخلي كل رغبة لمواصلة المعركة.

حل الظلام وصار همي الوحيد هو أن ألتحق بسريري. غير أن ساقي لا تستجيبان للدمية المتحركة التي أصبحت أمثلها. كنت أختنق. جسدي ينفصل عني. أتهاوى. إقترح علي سائق سيارة أجرة بطنه كبرميل هابط أن يرافقني إل المركز دون مقابل. أثرت شفقته. "دون مقابل" قهقه بصوت مطلق العنان. تفتحت أجفاني. هل هو رسول المعجزات في هذه الريح الطوفانية ؟ أراد أن يصنع صنيعا مفيدا.

لقد وقعت في يوم صدقاته بالضبط، ميل غريب قد يكون ظهر لديه ذاك النهار. شرح لي ضمن جزئيات كثيرة أخرى قائلا: "إنها عادة قديمة موروثة من المرحومة جدتي فقيرة". تهاويت في سيارته

القديمة الصفراء. وبعد أن أنزلني في مدخل الملجأ المتواضع. مثلما وضحت له ذلك سابقا. عدل من رافدي سرواله واختفى كالإعصار. مبعثرا في طريقه الزبالة المنزلية ليوم كامل كان أحد كناسي البلدية الواعين قد جمعها بشق الأنفس في نهاية تجمع منزلي واعدا به فكي آلية ميكانيكية. لم يترك لي الوقت حتى أشكره. لعله قد تذكر في آخر دقيقة زبونة غنية سوف يرافقها إلى سهرة اجتماعية !

كانت الأنوار الشاحبة اللون تضيء فوق قباب مركز الاستقبال. قال لي الحارس: "كانت هذه الأنوار بمثابة مراقب زمن الاحتلال" و هي تستعمل اليوم كمحيط لتجفيف الثياب. وزيادة على وظائفها الحرارية المؤكدة تمنع المتسلقين المفترضين للبطون. كانت انعكاساتها ترسم وجوها تذكر بغرابة هيئات حراس السجن القريب. نظرت إلى ساعتي: التاسعة مساء. لم أكن جائعة.

قضيت ليلة فظيعة خشية مواجهة يوم الغد. كان البعوض يهجم على الأماكن العارية من جسمي كجحافل من القناصة. وكنت وقفا على جميع

الشياطين. ولكي تزداد الأمور تعقيدا فإن جارتي البئيسة كررت علي طلب "الشمة". وأمام إخفاق محاولاتها، أدخلت يدها الشاحبة بضجيج في صدرها الضخم المتدلي، واقترحت علي مبلغا من النقود.

ورقتان أو ثلاثة دعكها بائع سردين. مسحوقة في قطعة من قماش. وأمام رفضي القاطع، قذفتني بكلمات نابية، وبصقت على الأرض ودست رأسها في وسادتها ولم تتوجه إلي بكلمة. لقد كنت في نظرها امرأة مقيتة. لم تتوقف عن الأنين وهي في سريرها ذي اللوالب الضاجة، مكتئبة من عدم إحساسي.

اليــوم التـاسع

لم أستيقظ باكرا للحضور إلى محافظة الشرطة إلا بعد جهد جهيد. دام انتظاري مدة من الوقت.

تخندقت المرأة المسؤولة التي كانت أملس من حجر الصوان وراء مبدأ التحفظ الخاص بهيئة الموظفين ولم تتذكر في أية لحظة محادثة الأمس.

وكانت قد وصلت قبلي. استأنفت تواصلها معي، بطريقة تكاد تكون خفية، طريقة تتأرجح بين اللطف والفظاظة. وبصوت حانق، دعتني إلى فتح جناحي اعترافي على مصراعيهما.

- لا ينبغي عليك أن تنسي شيئا، قالت محذرة، وأصابعها متقاطعة خلف رقبتها. إن الميل إلى السماع الذي بدا لي أنني لمحته فيها تبخّر مثل غيمة عالية في شهر ماي المتقلب.

مرّة أخرى، كدت أتعثر أمام هذا الموقف المغلق. ورغم ذلك، حلّت لساني قوة داخلية خفية:

- أؤكد لك على أنني لم أدبّر ضربتي. التقيت بها وحيدة بالصدفة. الفتيات الأخريات كنّ عند

الطبيب للفحص. كان يوم فحصهن الطبي. وكانت صفية تؤمن نوعا من المداومة، تحسبا لقدوم "زبون" من الدوائر العليا.

– ولكن، لماذا قتلتها ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ صرخت وهي تعض شفتيها إلى حد الإدماء. ثم كرّرت السؤال مرات عدّة.

انسلت المرأة المسؤولة خارج المكتب دون أن تكلمني، منزعجة دون شك مما قلته لها. بينما كنت أحدق في الملفات الضخمة الموضوعة على مدخنة من المرمر المثلّم.

وعند عودتها إلى مكتبها، سمحت لي بالكلام بحركة رأس معبرة. ابتداء من تلك اللحظة، فهمت أنها غيّرت طريقة معاملتها لي، مفضلة المقاربة الجذرية الصلبة.

ورغم القلق الذي استولى على جوارحي بعد هذا الانقلاب الفظ والمبهم، إلا أنني استرجعت شجاعتي لمواصلة اعترافاتي:

– لم يكن ذلك قصدي. كنت أريد فقط أن أسألها إن كانت تعرف أين يسكن الوسيط الذي سلمته

ابنتي. اشتقت إلى معرفة مصير "دُرَّة"، طفلتي التي لم أرها منذ عشرة أشهر.

* * *

في تنورة ضيقة دكناء مثل قصتي، وضعت المرأة المسؤولة ساقا على ساق في نوع من الاختلال الجاف، وحدقت في من قمّة الرأس إلى أخمص القدمين. لم أكن جسدا، بل صوتا مرتعشا، متداخلا في كومة من لحم. ولكنه صوت مصرّ على إفراغ حكاية الشقاء الخاصة بي. كانت تلك التي "تأمرني بالإسراع"، تداعب بعصبية سلسلتها الذهبية الرقيقة.

وخلف ظهرها، الصورة الرسمية لرئيس الجمهورية معلقة على مسمار خشن بحبلين أخضرين غليظين.

حاولت تبرير جريمتي:

– إن فكرة قتلها وسرقة ذهبها لم تستحوذ على ذهني إلا وأنا في بيتها، تحت تأثير عطورها وأدوات

التجميل المبعثرة على الصوان بأدراجه الثلاثة، ولكن مثلما أوضحت لك من قبل، إن مسئولية القتل لا أتحملها وحدي. كنت الضمير المؤنب نوعا ما، الغريزة المؤذية، الذراع المجرم لأناس لم يرضوا باغتصابنا فحسب، ولكنهم اقترحوا علينا، كبديل وحيد، الشارع والماخور. حوّلوني إلى شخص حقير سيّدتي، خرقة بشرية مضطرة، طوعا أو كرها، إلى العيش من مال غيرها. ينبغي أن يكون المرء قد جرّب عنف هؤلاء الأشخاص القذرين في بدنه و"ذاق" طعم وحشيتهم البهيمية غير المسماة، كي يفهم قذارة القالب الذي صنعوه لنا وزجّوا بنا في داخله إلى الأبد.

تفحصتني المرأة المسؤولة بثبات وإلحاح، مصرة على إنهاء التحقيق معي، ربّما أقرفتها طريقتي اللامبالية في سرد مأساة بهذه البشاعة. كنت شخصا غريب الأطوار، بلا نظير. جفّفت عرق جبهتها بمنديل مطرز الأطراف قبل أن تتدخل بطريقة فظة وترميني بتحذير صارم ومتذمر:

- ينبغي عليك إيجاد حيلة أخرى أكثر واقعية من التي قدّمتها لي كي تهزي مشاعري. إن فيك جانبا شيطانيا لا يوحي بأي نوع من التفاهم أو الثقة.

هل فكّرت بأنني غير صادقة؟ هل جرحت مشاعرها في شيء؟ هل وجدت أجوبتي مجتزأة؟ لا أعرف.

قالت غاضبة

- كوني صادقة وأجيبي عن سؤالي: هل تعتقدين حقا أنه لا يد لك في بيع طفلتك وقتل الصديقة التي أعالتك في الأوقات الحرجة من حياتك؟ إنه لأمر مخجل.

لم يلزمني أكثر من هذا كي أفهم أنني سقطت في نظرها سقوطا لا حد له. هل انتهت محاكمتي حتى قبل أن تبدأ؟

إن البحث عن الحجة المضادة القادرة على التأثير في حكمها يزيدني غرقا، للأسف الشديد، يزيدني غرقا في الوحل الدنيء لجميع المغامرات المخجلة التي عشتها بعد مقتل صفية. شعرت بخيبة أمل، وتراجعت جرأتي بسبب التحفظات المفاجئة

التي اتخذتها المرأة المسؤولة تجاه أقوالي، وهذا ما سوف يدفعها إلى اتخاذ مزيد من الحذر والريب.

كنت خاضعة لصدفة المفاجآت السيئة، فشعرت بوَهن يقعدني، ويشلّ إرادتي. كان صمتها مدمرا لي.

ردّت بعنف وبغضب ظاهر، ربما أزعجتها أجوبتي المتحدية:

- لا يمكن للمظالم الاجتماعية أن تبرر كل الجرائم.

ثمّ غيّرت جذريا طريقة معاملتها معي. فقد كنت سجينة غريبة غير مدرجة في معايير الاستنطاق المتداولة:

- إن المناقشة معك كئيبة مثل الحياة. عودي غدا.

بهذه الكلمات المرّة مثل الضياع، وضع حدّ لمواجهة هذا اليوم التاسع. إن مصير الحوار تكسّر في هذه اللحظة بالتحديد. هل تورطي في الجريمة وصل إلى حدّ لا رجعة فيه؟

* * *

رغبت في الصراخ عند خروجي من محافظة الشرطة. أدركت، وأنا أعاد إلى واقعي القذر، بأن الثمن الذي أدفعه إلى حجاج الحقد لم يكن برهانا كافيا لشرح فعلي تجاه أعز صديقاتي، لأستحق عناية متفهمة لإعادة إدماجي الاجتماعي. إن مصيري، الذي شكّله، بدلا عني، رجال لم أطلب منهم شيئا، لا يمكنه الطموح، للأسف الشديد، إلى أي نوع من التعاطف. لقد كان أشرس أعدائي.

لقد اتّضح أن جهود الإقناع التي بذلتها لم تكن في نهاية المطاف مثمرة، في نظر هذا المجتمع، الذي لم يقترح عليّ شيئا مغريا، والذي يخرج أشخاصا قذرين بيدهم حق الموت على ضحايا أبرياء بحجة أن الاستقامة الأخلاقية تنقصهم. مجتمع معبأ إلى حد السحق، تتحكم فيه جماعات لعب الانقلابات المفاجئة، وضفادع السياسيين الظرفيين، والمتدينون المزيّفون وحلفاؤهم الذين يمتهنون دون خوف من أي عقاب، تجارة الجنس الضعيف، واقع مقرون بالضربات الدنيئة والشهية الشرسة.

ثمة أسئلة متعددة تتلاطم في مخي. إن نوبات الغضب التي تنتابني باستمرار لا تؤدي بي إلى أي مكان كنت خائفة من السقوط مرة أخرى في عيبي المفضل وهو: المخدرات.

كان الجوّ حولي رطبا. ترتدي النساء المحجّبات ملابس ذات نغمات مشوشة. وكانت خطاهن أسرع من خطى الرجال. لا تظهر أية تموجات أنثوية على تلك الفضاءات الغليظة التي لها حساسية تجاه فكرة اختلاط الأجناس. لا مؤشر يدل على الأمل.

ألا يوجد إلا الحل الفردي الخارج عن العالم ؟ كنت غير راضية شرعيا، واستنتجت أن نضالي منحرف.

إهتزّ عنادي الأساسي بشكل عميق. وعند فحص مساري المتلف بعمق، اتضح أن كفاحي ضد قسوة الجلاد غير ملائم. على كل حال، عرّفني بخيبات أمل أكثر قساوة من تلك التي عشتها سابقا.

هل يجب عليّ أن أضع قناعاتي جانبا؟

وأن أتخلى، بين عشية وضحاها، عن مجموعة الحجج التي أستخدمها للدفاع عن نفسي؟ كنت

التجسيد الأمثل للعنة. مولودة-خاسرة، وضعت سلفا في غموض دائم.

* * *

كانت لحظة إصدار الحكم تقترب بخطى واسعة. خطفتني الحركة المتشابكة التي ينتجها الحي الذي أعبره مثل الآلة، وأوهمت نفسي بنسيان الوضعية التعيسة التي أتخبط فيها، لأن كبريائي يمنعني دوما من الإشفاق على .ـالي. وخز توعك ملح جسدي حينما أبصرت على الرصيف المقابل، في منتصف الطريق بين محافظة الشرطة ومركز الإيواء، طفلة لا يتجاوز عمرها السنتين، تتشبث بفستان والدتها، طفلة ضامرة يتقاذفها الحشد البشري الزاحف نحو وجهة مجهولة. أسرعت الخطى عند رؤيتها، كي أقترب منها بمسافة معقولة، كي لا أخيف الطفلة التي أصبحت هدفي المقصود. بغتة، عاد إلى ذاكرتي وجه صغيرتي "درّة". أرجعتني خلال عشر ثوان إلى أمومتي. تغلبت في تلك اللحظة

غريزتي على مسلماتي، ولا مجال لإخفاء هذا الشعور. كنت منهكة، وحساسيتي مرتبكة. كنت روحا عفنة، قذرة حتى العظام.

وبلا مبالاة ونظرة بريئة مثل الفجر، ذكرتني الطفلة بالمرأة الدنيئة التي أحملها بداخلي كاللعنة المستعصية الوصف. خليط جهنمي من نصف امرأة ونصف شيطان. صرعتني الذكريات وتعثرت. تسرّب إلى شرياني وهن مرّ.

وعند التبصّر في الأمر، كنت في وضع لا أستحق فيه العفو، غير صالحة للتوبة في هذه المدينة العمياء، المحاصرة دوما من قبل صياح الباعة المتجولين ومزامير السيارات القديمة التي أنقذها أصحابها من الخردة للتجارة بالماء. إرتفع دخان حاد من موقد، مشدود بسلك حديدي إلى عربة يجرها بائع فستق سوداني، باغتته سيارة شرطة عند منعطف شارع. يلعب لعبة القط والفأر مثل عادته في هذه المدينة–الغابة المؤهلة لجميع الانزلاقات.

التضليل من قواعد اللعبة. إنه يسلي حياة هذه العناقيد البشرية، التائهة طول الوقت، والراكضة دوما خلف الاسترزاق.

اتجه عاشقان شابان نحو مدخل الحديقة العمومية، الذي دهن إطاره الخارجي بالجير دون عناية. إنها الفضاء الأخضر الوحيد الناجي الذي يتصل بالشارع الصاخب الملوّث بإفرازات الحافلات الضخمة التي تلفظ ركاب الضواحي. سيلوي العاشقان دون شك عنق التقاليد الراسخة، وسيجهدان نفسيهما ليكونا سعيدين، لحظة حلم تتشكّل على مقعد عمومي، سحقه الانتظار. سيجدان فتيانا آخرين تحت صفوف الأجمات سبقوهما إلى جنة الأحلام، برفقة غرائز سنهم الجنسية. ينتمي كل هؤلاء الباحثين عن الحب البوهيمي إلى الغالبية البسيطة، أي تلك التي لا يمكنها أن تطمح إلى نشوة السيارات ذات الهواء المكيّف ورفاهية الفنادق المحصنة بالنجوم. في هذه الأماكن المرخّص فيها بنفاق خبيث، المسمّاة من قبل أنبياء الأخلاق بـــ"المحششات"، نسبة إلى أماكن الفجور والانحراف، يرتكب فقراء المدينة كل

الاختراقات. لكلٍ شخص استيهاماته، والمنطقة المحررة ليست لأي واحد. يحقق العشاق وجودهم داخل هذه الفضاءات النادرة، الموعودة بإلغاء عقود الكبت المدمرة، والرسائل المجهولة والأصابع الخبيثة لتجار التديّن.

* * *

كان الندم يقضّ مضجعي. لا يتوقف عن الظهور مثل الجزر الوحشية التي لا تعرفها الخرائط الجغرافية. أعجزتني الخيبة عن إيجاد أجوبة لمساري المحزن. تفتت حججي الواحدة تلو الأخرى. أجتر خيباتي المتكررة.

استفقت من غفوتي العميقة تحت صيحات ملحة. إنه سائق الأمس، صاحب حمالات البنطلون.

إعتذر عن مغادرتي فجأة دون إخباري، ثمّ طلب مني إن أمكن أن أحمل كيس حلويات إلى قريبة له. كان جسده يتصبب عرقا، جبهته ندية وشعره كث يعتريه الشيب:

– تسكن في مركز الإيواء، في المكان الذي أنزلتك فيه بالأمس، قال محددا.

أدرك حيرتي المتعلقة بهوية المرأة التي يتحدث عنها، خاصة أنني على خطوات من سياج السجن الحديدي، فأضاف:

– إسمها شريفة، بجسدها وشم كثير، سوف لن يصعب عليك التعرف عليها.

هنا أيضا، لم يترك لي الوقت الكافي إلا لرؤية أسفل نعليه. كان اختفاؤه بسرعة، لا نظير لها.

و فجأة خطفت اهتمامي قارئات الغيب اللواتي تعج بهن ضاحية السجن. وصفاتهن ؟ بسيطة كصباح الخير: يبشرن بنهاية شقاء الأقرباء السجناء. ويبالغن إلى حدّ تحديد ساعة ويوم الإفراج. إن غالبية زبائن هذا الحشد من المتنبئات المحجبات الموشومات الآتيات من سهول المناطق الداخلية للوطن، حيث لا ينبت إلا الخراب، هن غالبا أمهات المحجوزين خلف الأسوار، الباكيات الشاكيات. تؤكد قارئات الغيب على أنهن يثأرن من البلد الذي أنجبهنّ في تلك الهضاب الجرداء التي لا حياة فيها

حتى للبهائم. وتحت تأثير الطمع، استثمر بعضهن مجهوده في تبديل العملة الموازية. ويرجى من مالكي هذه العملات القوية أن يقتسموا الأرباح وقت المبادلة. كما تستعد العرافات لمنح مزايا أخرى من النوع الخفي. تتعدد الخدمات بحسب الرغبات المتنوعة لهذه الشرذمة من الأوباش الذين يستغلون جميع الفرص المتاحة أمامهم. كل شيء يخضع للمساومة، وقابل للتحقيق في مملكة الشطارة المحولة إلى دين. إن المواجهة مسألة شغّ في هذه الفوضى المتجددة مثلما يتجدد عقد ضمني.

جاثما على ركبتيه ورافعا ذراعيه، طفق بائع سوائل مشكوك فيها، ومعروضة على جلد ماعز مدبوغ، بعينينه الجاحظتين، وأنفه المعقوف وسحنته التي أحرقتها الشمس، يذكر بمزايا سلعته. يقول بأنها دواء لكل الأمراض، وأن لديه حلولا لجميع الوساوس التي تعذب البشر. إذ بإمكان محتوى السوائل التي يعرضها "بسعر لقمة خبز أن تتغلب على جميع الأمراض المستعصية. إن القضاء على شقاء البشرية مسألة شكلية بالنسبة إليه. فلديه دواء

لجميع الأمراض الخبيثة. يؤكّد بأنه سيرجع الثمن للشاري إن اتضح عدم فاعلية الدواء في الأيام العشر القادمة. "هذا مكاني الدائم، الجميع يعرفني، ويمكن استشارتي حسب مواعيد مضبوطة في الساعة التي تناسبكم" ما فتئ البائع يكرر في وجه المتحلقين حوله، المشدوهين بالحيل العجيبة لسحرة الكلمة.

كانت المنافسة حامية الوطيس ولا تترك وقتا للراحة لمريدي التجارة في الهواء الطلق. كانت المشاجرات التي تحدث هنا وهناك تمنح لسوق الدجالين هذا نكهة خاصة به. شجار حول مكانة سبق أن حدّد موقعها بالأمس، وشجار كذلك حول حافظة نقود فقدتها أمّ ساذجة.

إن التبريرات الواهية منتوجات يتقاسمها هذا السرب من المزورين النهمين الذين لا يشبعون أبدا.

هؤلاء المخادعون الشرعيون. والحق دائما في صف الأكثر فوضوية.إنه عرين اللسان، سرير المنومين، الكنز المسلّم به لملهاة المهرجين. إنه الفخّ الحرفي للبشر العاديين، ولكنه أيضا روح الطبقية التي تعبر هذه الشريحة من السكان التي تحسن

التعبير أحسن من غيرها عن الضيق الذي يسكن كل واحد منا. فهي لا تنظرٍ للجروح الاجتماعية. بل تمسها وتطوف حولها بالخدعة. لكل مهنته. ومهنتها الإبحار بالإنسان الذي لم يعرف البحر أبدا. تلك هي عبقريتها. إذ تجعل الناس يبتلعون خزعبلاتها بلا ريق. مثلها مثل السياسيين. في العمق، إنهم يشتغلون بتسويق نفس السلعة، سلعة العجز. وحده الغلاف يتغير، وإن لم نكن متأكدين من ذلك بالفعل.

* * *

قصدت الجناح الذي أتقاسمه مع شريفة مباشرة فور عودتي إلى المركز. صحيح أن جسدها كان مغطى بالوشم، لذلك لا مجال للخطأ. كانت غافية على سريرها ولم تكد تنتبه لحضوري. أبردتها تجاهي حادثة الأمس التي لم تصل فيها إلى أية نتيجة. ربما خدش كبرياءها عدم تعاوني معها. كان جبينها الأجعد أكثر ذبولا من العادة. يتلألأ العرق على خديها الأكمدين الفاقدين لنضارتهما. لقداستقر غسق حياتها بصفة لا رجعة فيه على ظهرها

المقوّس بثقل السنوات. وكانت رزمة مفاتيح، مربوطة بخيط حذاء، تتمايل على رقبة العجوز المجعدة.

عند قدم سريرها الذي لا يبعد عن سريري إلا نصف متر، تناثرت قطع الحلوى التقليدية المتعفنة.

جلبتها معها، كمؤونة، من أجل ذهاب بلا عودة. كان قطيع من الحشرات يأكل من هدية السماء تلك. أما الذباب فاكتفى بالتحليق عاليا.

وضعت الكيس على الرف القديم الذي يصلح أيضا كعلبة الدواء، وجلست مقابلا لها قائلة:

- هذه لك.

كرّرت المحاولة أكثر من مرة، حتى تتفضل بالالتفات إليّ. كانت غاضبة مني.

- جلبت هذا كي أغفر لك رعونتك بالأمس، أليس كذلك؟ غمغمت كما بفعل الطفل العبوس.

لم يربكني لومها قط، فطفقت أحكي لها بالتفصيل لقائي مع سائق الطاكسي وطول الوقت الذي انتظرني في قارعة الطريق، في ذلك البرد، كي يعطيني هذا الكيس.

رفعت الغطاء ببطء، وفتحت الكيس بيديها اليابستين الخشنتين، الشبيهتين بأيدي بناء، ثم أخرجت قدميها من سرير أشبه بحوض وانسلت على زربية الصلاة. بطريقة آلية، وضعت ذقنها في عمق يدها اليسرى وانهارت بالبكاء. إن الكيس كان يحتوي مسحوق تبغ "الشمّة". أدركت شريفة طبيعة محتوى الكيس قبل أن تفتحه. فهمت ذلك من ارتعاش شفتيها. على كل حال، جلبت لها رائحة التبغ شعورا ألذ من رائحة الحلويات. إنّ المحسن لم يكن إلا ابنها. هو الذي وضع والدته قرب عتبة باب مركز الإيواء في يوم يأس، كان قد أحيل على التقاعد بعد عمر من العمل في المصنع، وتم تسجيله على لائحة المتقاعدين دون أن يطلب ذلك. من خلال الأوصاف التي قدمتها لها، تعرفت شريفة على ابنها وباحت لي بكل شيء.

تمكنت من تهدئتها بعد مشقة كبيرة. فجثت على ركبتيها أمامي وفتحت لي قلبها على مصراعيه كي تبرّر لي الأسباب التي دفعت بابنها إلى إهمالها:

- لم يكن قادرا على توفير حاجيات أبنائه وشراء كمية التبغ التي أستهلكها يوميا. كان ذلك فوق طاقته، أتفهم شقاءه ذلك ما شرحته لي تلك العجوز، التي انتابها نوع من الابتهاج لأن ابنها لم ينسها كلية.

* * *

أوقف ضجيج صاخب آت من الخارج بوح شريفة. وفي هذه اللحضة، و بحركة مسرحية، وبعد ضربة خفيفة على العلبة الحديدية، فتحتها في لمح البصر، شمّت محتواها، أخذت كمية لا بأس بها، عجنتها في كرة صغيرة بين أصابها ثمّ وضعت العجينة الخضراء تحت لسانها. لقد عذّبها نقص التبغ. بعد دقائق معدودة، استرجعت حيويتها- شعور أعرف طعمه وثمنه أيضا-، ثمّ أرتني صورة عائلية ألقت عليها سخريتها. وهي تقول متذكرة في تنهد عميق:

– آه ! كان ذلك الزمن الجميل الذي أصبحت فيه مواد الاستهلاك العام، وبالأخص تبغ الشمّة، تباع بأثمان زهيدة.

أرخت حبال أشرعتها لعودة حزينة إلى الماضي، ولكنها تراجعت بسرعة كي لا تمنحني الشعور بأن حالتها الحالية قد تسبب فيها ابنها بمفرده. ثم قالت بنبرة خريفية، كأنها تعارض كل تلميح:

– ليس الخطأ خطأه.

ثمّ أضافت:

– ليس بالأمر السهل أن يعيش الإنسان اليوم نزيها.

ثمّ، ودون مقدمات، غرقت في إغفاءة مباغتة. إن غفرانها يتمثل في إهمال كلي لحقوق أمومتها.

ربما تقولون أن هذا طبيعي، إنها أمّ، وككل الأمهات تعرف المعنى الحقيقي للحب. تحرّك السكين داخل الجرح مرارا. إحتفظت بآثار الجرح عميقا، ولكنها لم تكن مستعدة لكشفها.

توقفت المناقشة بعد ابتهاج لم يدم إلا وقت اكتشاف وضعها المزري. لا تهم الطريقة التي عاملها بها ابنها، ما دام يوفر لها من حين لآخر تبغ الشمة، مخدرها المفضل، المفتاح السحري الذي يدخلها إلى مملكة أحلام اليقظة والأوهام الاغتباطية.

كان الإنكار الذي أظهرته شكليا مديرة المركز، عند وصولها، بعيدا، تائها وسط متاهات أمل اختصر للأبد. لقد أعادت خلق عالمها على خراب طريقة حياتها القديمة. كان تبغ الشمّة الذريعة المثلى، أو بالأحرى جسر الفشل. من الآن فصاعدا، ولكل الأيام التي بقيت من حياتها، ستكتفي بهذا النموذج.

* * *

كان قطيع من القطط يراقب الحمام الجاثم على الميازيب المهترئة للمنزل المقابل. لم يكن وضعها الثابت، المترصد لكل تحرك، لا يقلق شريفة بأي حال من الأحوال. لحظتها كانت غائبة عن حيل الصيد لدى القطط. تكفيها انشغالاتها مع هموم الدنيا.

طفقت تغني بصوت مرتفع ألحان أغنية قديمة، عند الجرعة الثانية، في ساعة إطفاء الأضواء، موعدي المفضل مع الليالي الساهرة.

لم يكن نقص النوم يؤثر في نشاطي منذ فترة طويلة.

وعند احتساب شقائي، انتهى تقسيم التوقيت إلى التفتت شيئا فشيئا ليشكل خيطا رقيقا في اتصاله مع الزمن الكوني. أسندت ظهري إلى جدار العزل، أعيد ذهنيا قراءة مضمون أقوالي المودعة عند الشرطة. لم تضعف همومي. بل أسوأ، وسعت هيمنتها على كل حواسي. كنت أباشر آخر دورة للمقابلة النهائية. وبعدها يأتي دور القضاة لوضعي في الظل بشكل نهائي. بدوره، تحول مركز الإيواء إلى قطعة من الحرية المفقودة. هزيمة ترتكز على هزائم أخرى.

اليــوم العاشر

بينما كنت جالسة على المقعد، أنتظر استقبالي، امتدت يدي إلى صدريتي لتسحب رســالة صــفية، وهي آخر رسالة كتبتها بطلب منها قبل موتها بعشر دقائق. كانت الرسالة موجهة إلى خالهــا متــضمنة السلام عليه، والاستفسار عن أخبار أختها عائــشة، وتخبره فيها بأنها غير راضية عن مهنتها كممرضة، وأنها تنوي العمل لحسابها إن شاء الله. وقد ختمــت رسالتها بدعاء مؤثر:

ــ أسأل الله أن يهبكم جميعا عمرا مديدا! صفية التي تفكر فيكم.

وبالطبع فالرسالة لم تصل إلى وجهتهــا. فقــد احتفظت بها مع الجواهر المختلسة. رسالة لا تباع، ستنقل لأصحابها عندما لا يتدخل القدر في طريــق ذويها.

ومأ الحاجب إليَّ إيماءة فهمت منها أنه يدعوني إلى الالتحاق بالمكتب الذي تعودت أن أستجوب فيه.

بدت لي المرأة المسؤولة في هـذا اليـوم جـد مستاءة، وذات مزاج متغير. قـدمتُ لهـا الرسـالة بطريقة آلية ودون أن أحييها تحية الـصباح، فقـد تملكتني حالة عصابية يصعب إيقافها. تلقفت الرسالة بلهفة شبه منطوية على خبث، دون أن تتحرك مـن مقعدها. خيم الصمت على المكان وهلة من الزمن. كانت المرأة المسؤولة تحملق في الرسالة، وكأنهـا تلتهمها بشراسة، محنية الظهر وهي تقرأ باهتمام.

تقرأ وتعيد قراءة سطور هذه الورقة المكتوبـة على الوجهين. ازدادت نظرتهـا تجهمـا وقـسوة، وأصبحت أنفاسها مضطربة متلاحقة. لم أقوَ علـى امتلاك نفسي. يبدو لي أن "عدم اكتراثهـا" الممتـد شبيه بصعقة كهربائية غير منقطعة. وللتقليـل مـن حدة رعب الصمت المطبق الذي سكنني فقد رحـت أحملق بتيه في سقف المكتب، انفلاتـا مـن وطـأة الزمن المخيم في المكتب منذ مدة. كان قلقي متناميا من شدّة الترقب المحير وعدم تبادلنا أية عبارات.

أخيرا وضعت المرأة المسؤولة الرسالة جانبا، ثم واجهتني قائلة بصوت متهدج. صوت تخنقه الحسرة:

ـ المرأة التي قتلتها بعدما استحوذت على مجوهراتها وعلى رسالتها، هي.. هي أختي، أختي التوأم. قالت ذلك ثم أضافت مستدركة على الفور:

ـ أنا عائشة الناجية ! عائشة المقيمة عند خالها كانت الرسالة موجهة إلينا.

أحدث هذا الخبر المرعب انفجارا قويا في رأسي. خبر اهتزت له فرائصي وتفتت له كبدي.

تحنطت نظراتي على شفتيها. ترنحت ترنح براعم القصب في مهب الرياح العاصفة. كانت ارتجاجات مرعبة تلون صوتها صعودا وهبوطا، خارت قواي وفقدت الإحساس من شدّة هول ما سمعت، ولم أعرف كيف أتصرف، ولا بما سأرد على الاستفسارات.

كنت خالية الذهن تماما من احتمال وجود قرابة تربط بينها وبين صفية. إنها أكبر صدمة عرفتها في

حياتي. كانت أمضى من شفرة مستخدمي السكاكين المهرة الذين احتجزوني وانتهكوا عذريتي.

خارت كل قواي، فأنا لم أعد أتمالك نفسي.

كنت مذهولة، أغمي عليَّ، كان آخر مخرج متيسر لي. بدا لي المنحدر الزلق الذي كان فضاء لمغامرتي كارثة حقيقية. مرة أخرى يخونني الحظ، ففي الظروف الراهنة أنا امرأة منبوذة، بلا جدال،إمرأة هي البؤس. امرأة منضوية نهائيا تحت لواء حراس الوضع الاجتماعي الراهن الأشداء الذين يمكنهم أن يصطفوا في كل الجهات وبشكل غير متميز لإدانتنا، هؤلاء الحراس ولدوا ليزحفوا أو يتسلقوا، ولم يولدوا من أجل الإخلال بالنظام القائم.

استحالت مهارتي في المرافعة إلى إخفاق كلي لدرجة التحسر على أنني لم أضع مصيري بين أيدي "الشوافات" الماهرات اللواتي كن يتسكعن حول السجن، هؤلاء ــ على الأقل ــ كان لهن فن منجز، وكيفية تطمئن روع المخفقات مثلي، فأباطيلهن كانت جديرة بتغذية الوهم، لقد ولدن كي يجعلننا نتقبل لجلجة الحياة في فراغها الصاخب وفي ابتذالها

وتفاهتها، فالأكاذيب التي يتقبلها سواد الناس سند قوي لمواجهة صروف الدهر.

كنت ممددة على سريري، ارتعش من الحمى.

انطويت على نفسي لأطمئن إلى أن الكابوس الذي أثرت سكونه يمكن احتماله،. أم أنه سيبقى ملتصقا بي ما حييت كتلك الكرة التي يجرها بعض أصناف المساجين وتقيد أقدامهم،. إقتحمت ذاتي صورة المرأة المسؤولة دفعة واحدة وأبت مغادرة مخيلتي. أصبحت "عين قابيل" المسلطو علي. لقد تم إدراجي في سجل الأشرار نهائيا. دميةٌ متعة أنا، ينفخها الباحث عن اللذة كل حين، في بلد يبيع أهله الآداب بسعر زهيد. تغيرت كلية لأنني قنطت تماما من استعادة راحة نفسي.

توارت طموحاتي إلى الأبد، فالورم المخيف الذي نسميه قدرا لم يمهلني لحظة. ظللت غارقة في الألم بسبب التأنيب الذاتي، ثم عدت لأتجرع مرارة طموحاتي المخفقة، فقد سلكت دروبا ملتوية علّها تقودني إلى إدراك كنه حقيقتي، بيد أنها كانت مخالفة

لأصول قواعد الاجتماع التي تستند إليهـا الحركـة الإنسانية التي أوصلتها ـ بعد إخفاق شامل ـ إلـى ضياع تام. والواقع أن نزاعي مع الحياة لـم يكـن مثيرا. ضحية زائدة أو ناقصة في مسيرة قوم تعـد تفصيل صغير لا قيمة له في المأساة التي تنخر بلدي منذ عشر سنوات.

عجبا ! كيف استطاعت أن تصبر وتحافظ على هدوئها دون أن تبدي اضطرابها خلال عشرة أيـام من التحقيق، تجاه كشف حقيقة أختها ؟

ـ ماذا لو استأنفنا حديث الأمس ؟ فهناك بعض التوضيحات التي بقيت عالقة منذ أمس.

إنتفضت على إثر الصوت الذي آلفت سماعه.

كنت مسمرة في السرير، عاجزة عن أي شيء سوى تحريك رأسي كضفدعة. ينبغي لي أن أقـول لكم أن المرأة المسؤولة انتقلت إلى المركز لإنهـاء تقرير تحقيقها. وحسب فهمي فهو نوع من السراب.

فركت عيني مرات عديدة لأستيقن من أننـي لا أعيش كابوسا، وانتهيت باستسلامي لحكـم الواقـع منتفضة ككلب مبلل.

أنهت الآن أخت صفية مهمتها. كانت عازمة على معرفة كل شيء فيها. وبلباسها المدني المتناسق، وتسريحة شعرها القصير، صارحتني قائلة بلهجة عنيفة:

ـ أصارحك بأنني أفدت كثيرا من عنادك في هذه المسألة، وسأذهب معك إلى النهاية، لقد جعلت منها مسألة مبادئ.

أجبت متخاذلة وبصوت منخفض:

ـ أنا مستعدة لدفع الثمن.

قلت لها ذلك لتعرف أنني من جهتي لا أسعى إلى نفي التهمة عني، ولا أسعى لمودة ولا لكراهية، غير أنني أطالب أن أعامل بقليل من العدل فقط.

ردّت بعينين متقدتين، وفي حالة هيجان غير مألوف. قائلة:

ـ لقد ارتكبت الأسوأ في حكم القانون، ولا مجال لنكران ذلك، بيد أن فعلك هذا قد قدم لي خدمة جليلة بمساعدتي على التغلب على العار الذي سببته لي مهنة أختي. المهنة الأقدم في العالم المفروضة على الفتيات البالغات منذ العصور الموغلة في القدم.

إن لا شرعية فسقها المفتــرض هــي الوليــد الطبيعي لفتاوى المخابئ والمعاقل الممقوتة. معاقــل شيطانية للملتحين الذين يمثل الاغتــصاب هــوايتهم المفضلة.

عندما كنت متكئة على حاجز الفصل أحسست بثقل هائل يدهس نهدي. كنت خائرة القوى. تيقنت أنني تجاوزت كل حدّ. تمنيت ألا أكون من هذا العالم. كنت في حالة انهيار تام. مرة أخرى وضعتني المرأة المسؤولة في وضع غاية في الحرج. كنت ـــ في الواقع ـــ ألهث بحثا عن كلماتي، فرت مني الكلمات، ولم أجد ما أقوله أمام سيل أقوالها المعبرة عن مشاعر الحزن غير المحدود. تملكني رعب قاتل استعدت فيه وقائع الماضي. كان رأسي يدور، وصراخ الإبادة الجماعية يختنق في ذاتي، كنت بلا حماية داخل هذا القفص العازل الذي جهزه حماني "الأثرم". المجاهد الذي دون وثائق إثبات. ولكي تكتمل دائرة العقوبة التامة، فإن المروحة المثبتة على السقفقد شلت

حركتها بعد أن أصدرت أزيزا يصم الأذان: لقد لفظت أنفاسها الأخيرة.

لاحظت المرأة المسؤولة الألم الذي أتخبط فيه فقدمت لي مقعدا أعرج، تأملت ساعتها للتحجج، واتكأت على العجوز النائمة، كتلة بشرية لا تستوعب كثيرا ما يدور حولها، منقطعة عن الناس تعيش في مملكة الأموات/الأحياء. لم تكن شريفة معنية بهذه التعرية المؤلمة، لقد قررت أن تتنحى جانبا بعيدا عن الحمى الدورية التي تفتك بالمجتمع، إذ كانت نضارتها تكمن في علبة تبغ.

لم يكن بوسعي أن أحافظ على رأسي مستقيما، فالألم المبرح يعصرني، آثرت الحلُ الأسهل: أجهشت في بكاء حار، ها هي الطبيعة تستعيد سننها، كانت أوهامي النضالية مثيرة للشفقة، مقاتلة حمقاء، كنت مهيأة لجميع الاحتمالات سوى البكاء.

* * *

تداعب مديرة المركز المتباهية بزيارتها شحمة أذني مثلما كانت تفعل والدتي معي في زمن كنا فيه سعداء على أرضنا بالقرب من الملجأ.

ــ عنادك جعلك تنازعين كل مَن يحيط بك. وبسبب مكابرتك فإنك لا تبذلين أدنى جهد لفك الحصار من حولك. هل تجدين متعة في أداء دور الشهداء؟

كانت النغمة التي تضمنتها كلماتها الهجومية قاسية، تعكس تواطؤا لا تحسن إخفاءه. كان يستشف من صوتها رغبة يائسة في التخلص من الكلام الملتبس، وباختصار، تريد أن تكون واضحة بما هي عليه، وليس من خلال المظهر الذي تتخذه عادة.

أسندت رأسها على صدري، وضمتني إليها بقوة لتعبر لي عن مرارتها بصوت لاهث، تقطعه حشرجة مؤلمة، حشرجة آلامها الخفية، لكن، وعلى الرغم من ذلك، لم أكن قادرة على التنازل عن هم قلق غريب يظل يلاحقك إلى أبعد خفايا أفكارك.

كنت على شفا حفرة من نوبة عصبية، معذبة بفكرة أن المرأة التي تستنطقني منذ عشرة أيام تحمل نفس اسم صفية العائلي.

لم يكن جسمي المتهالك يملك أية ذرة لرد فعل مناسب تجاه تدخل هذه المرأة في حياتي الخاصة، امرأة ذات ملامح متعبة، التي لا تكف عن الإلحاح عليَّ لأروي لها قصتي المؤلمة، قصة شبابي المصادر من قبل صانعي الضمير، قصة يصعب تصديقها، لا تقوى جميع وجوه العالم الخفية على الكتابة عنها.

فهمت أن مضايقتي بتلك الكيفية تعني أنها تريد هي أيضا العودة إلى البداية. فهي المعذبة إلى أعمق أعماقها، لم تقبل بحمل عصا المصالحة مع مجتمع في حالة ضلال، وفي حالة خراب ودمار لجميع أجزائه.

ـ اهدئي ! فلن أكون أبدا المرأة المقهورة.

صرخت بذلك كوقع مصيبة مفاجئة ساحقة، قبل أن تضيف:

ـ لا يمكن لأي كان أن يعدل قراري.

كان صوتها حادا، هي ثائرة بالتأكيد، متمـــردة على الحدود التي أقرها مهندسو الدماء. الآن تحديدا، أدركت أن المرأة المسؤولة تدفع دين عار الفضيحة، عار كانت تتحمله وحدها.

كان مذهب المصالحة، المنشط بالنوايا الحسنة وبالتخاذل الجماعي، يثيرها إلى أقصى الحدود.

وكانت روحي تطير وتحط في جميع الاتجاهات، خشيت ألا يكون هناك سوء فهم في هذا البلد ذي المظاهر الخادعة، حتى ولو كانت الكلمات الصادرة عنها تمنحني بعض الأمل.

كان للمرأة المسؤولة مبرراتها، وأولها برأيي هو ذكر هويتها للآخر، هذا الآخر الذي ينطلق بدءا مني، أنا قاتلة أختها التوأم. أنا المتمردة، الممقوتة.

و هي، وبصورة استثنائية، في بداية مهنتها كمسؤولة، لم تقدم شهادتها في القضية، لكنها كانت تسبر عالما قريبا منها، له صلة حميمية بها. فقد شكلت وإياها وجهين لمأساة واحدة. وجهين مجردين من عزة النفس. يعيشان فاجعة حقيقية.

هي تدرك، في قرارة نفسها، أن ما قمت به هو في المطلق عمل حقير، ولكنه لا يمكن أن يقتصر على نقص العلامة المميزة. إن دوافعها قبل كل شيء هي التعبير المذهل عن الفترة التي نمر بها. ولقد كانت المرأة المسؤولة مثلي، غير موافقة على الاكتفاء بالأحكام الاستعجالية، فالوصول إلى مرحلة العفو ليس مرسوما يوقع داخل غرفة مظلمة.

العفو الممنوح لسحرة السكاكين الذين يقتلون مخلوقات الله باسم الله هو وصية متخاذلة تشبه كثيرا خيانة عظمى.

كنا غير مستعدتين على الإطلاق لضرب صفح عن عشر سنوات من الجحيم، فكتب التاريخ لن تتسامح مع نسياننا لملهمي الفوضى الحقيقيين. وهذا الاختيار يكفيني.

* * *

كانت عربة نقل المساجين تنتظرني في الخارج لتقودني إلى القاضي، وكنت مهيأة لأعود إلى السجن المجاور للمركز. كنت ساكنة. مذنبة، لكنني لست مجرمة.لن ينال مني مبتكرو القتل والنفي والتهجير أبدا، سأكتب قصتي، قصة صفية، وهي وسيلة لتمديد الذاكرة المغتالة.

لقد تعلمت الكتابة من حماني "الأثرم" المجاهد دون وثائق إثبات. كان المعلم الذي لم أحظ به أبدا.

***

الإيداع القانوني: 2007 - 1754
ردمك: 2 - 276- 54- 9961- 978
دار الغرب للنشر والتوزيع
حي 52 مسكن رقم ENSEP/101 – وهران-
الهاتف: 82 17 58 041 / 52 85 58 041

Natif de Beni-Saf, Bouziane Ben Achour est journaliste depuis une trentaine d'années.

Actuellement responsable du bureau régional du quotidien national « El Watan » de la région Ouest, l'auteur de « Hogra » est connu surtout dans le monde du 4ème Art. Il est auteur-dramatique de plusieurs pièces de théâtre à succès et de deux ouvrages sur l'histoire du théâtre algérien ainsi qu'un livre sur les figures emblématiques de la musique algérienne.

Par ailleurs, Bouziane Ben Achour est essayiste et romancier. Il compte à son actif sept œuvres dont quatre romans en rapport, plus ou moins direct, avec la tragédie de la décennie écoulée.

Tous ses travaux ont été publiés aux Editions « Dar El Gharb », Oran.

عشر سنوات من الوحدة

لِيوم غد، مع الامتياز النهائي برفقتي حتى باب المخرج.

آخذة عطلتها مني، رتبت على كتفي، قالبة الشكليات المفرطة لمؤسساتنا. لقد استقبلت هذه الحركة كهدية عذبة. تقدم الحنان على المهنة. أصبحت شخصا يعاشر. الرقة التي أظهرتها بالنسبة إلي فتحت لي آفاقا. الآن أصبح بإمكان القاتلة التي كنتها أن تطمح في تقرير تحقيق صاف، خال من الأحكام القبلية والقراءات الضيقة للقانون. كانت حريتي مرشحة للتمديد. لم تغتصب. لقد ربحت المسيرة الأولى لهذه المعركة التي لم أتوقعها، يجب الاعتراف بذلك.

بدورهم الحراس الملائكة الذين لا يفوتهم شيء، يحيون بأيديهم المقفزة. بدأوا يقللون من الضحك عند مروري على كل حال. وهذا كان كافيا بالنسبة إلي.



دار الغرب للنشر و التوزيع